آيات الدعاء في القرآن الكريم
دعاء الصالحين

أهل الجنة الأبرار

ويليه دعاء الكافرين الأشرار أهل النار

(من الإنس والجن)

الدكتور
محمود محمد أحمد

الدكتور
موسى الخطيب

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م



الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا

وأنت تجعل الصعب إن شئت سَهْلا

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد للَّه رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . . وبعد،

فقد عرف الإنسان منذ وجوده قوة تَفُوقه ، وإرادةً تحيطه فكان يلجأ إليها عند ضيقه وكربه سواء فى ذلك الموحد والمشرك، فالجميع ينادى عند شدته من يراه للمناجاة أهلاً ، وللإنقاذ والنُّصرة عوناً حتى وفدت رسل اللَّه وتعاقبت على البشرية تحمل إليها شرائع اللَّه التى أمرت بكل ما يجلب للإنسانية الخير فى عاجلها وآجلها كما نهت عن كل ما يسبب لها سوء العاقبة فى دنياها وآخراها ، وكان المصطفى خاتم الأنبياء وكتابه القرآن آخر كتب السماء ، حمل للخليقة من الخير ما فاق كل سعادة ينشدها البشر ، وجعله اللَّه خالداً لتستضىء به الإنسانية فى أمورها كلها فكان من أوامره الالتجاء إلى الله فى السَّراء والضَّراء والمَنْشط والمكره فقال تعالى: ﴿ **وقال ربُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ... ﴿٦٠﴾ ﴾[**غافر**] ، فاستجاب إلى هذا النداء من استجاب فدعا وتضرع وجنى ثمار مناجاته . . ونأى وأعرض عن هذا النداء من نأى وابتعد مؤثراً الغواية والضلال على الهداية والرشاد فعرف الخيِّرون من الخلق فضيلة الدعاء فأيقنوا بأنه نعمة مسداة من رب العباد فملأوا به نفوسهم وحقنوا به نياط قلوبهم ، ورطَّبوا به ألسنتهم فكانوا فى مناجاة اللَّه صباح مساء فى غدوِّهم ورواحهم وظعنهم وإقامتهم ، طلبوا من اللَّه كل خير وناشدوه البعد عن كل شر فأصابوا بذلك الخير ووقفوا على حكمة التشريع من الدعاء، فمارسوا الأسباب التى أوصلتهم إلى الأهداف فتحققت بذلك الغايات حتى وصلوا إلى المبتغى والأمل المنشود فكانوا بذلك من الأبرار الأطهار المقربين .

وسلك الأشرار من الخلف مسلكاً عجيباً ومنهجاً معيباً حيث بدلوا نعم الله نقماً وصيروا الخير شراً . . وأسباب النجاة سهاماً للدمار والهلاك فجاءهم المصطفى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وليبدد به ظلمات طال أمدها وعَمَّ بلاؤها فلم تكن منهم استجابة ولا رغبة فى الخير والهدى حيث تمردوا وحاربوا تارة باللسان وأخرى بالحسام وهداهم تفكيرهم إلى كثرة الاعتراضات ، وإيراد التساؤلات وليتها كانت فى صميم الموضوع حاملة لهم الخير دافعة عنهم الضر مرشدة لهم إلى الصواب بل سألوا والأسف يملأ جوانح النفس سألوا الرسول أسئلة المتعنت الضال المضل أن يطلب من ربه أن يُسقط عليهم حجارةً من السماء تصديقاً لدعواه، ولم تكن قريش وحدها هى التى سلكت هذا المسلك مع رسولها الحبيب بل لأمم الرسل السابقين عليه مواقف مثل هذه مع رسلهم فها هم قوم شعيب يقولون له ﴿ **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴿١٨٧﴾ ﴾[**الشعراء**] ، ولقد ورد لهذا الصنف من الخلق أربعة أدعية فى القرآن الكريم فى سورة الأنفال والشعراء والعنكبوت وسبأ وللجن دعاء واحد مكرر فى سور الأعراف والحجر وص وجميعها تتسم بالتعنت والعناد والتكبر فى مواجهة الرسل ودعواتهم ، لقد قلب أصحاب هذه الأدعية موازين الحياة رأساً على عقب حيث جعلوا وسائل هدايتهم وأسباب سعادتهم ، وسائل ضلالهم وركائز انحرافهم ، فبدلاً من أن يسيروا على النهج المشروع والدرب المعقول ، مشوا على النقيض تماماً ، فاستوجب ذلك غضب اللّه عليهم فكان مأواهم النار وبئس القرار، وكان قائدهم ومعلمهم على طريق الغواية وصاحب لوائهم فى النار إبليس اللعين وجنوده اتبعوه وصدهم عن السبيل فكانوا من الهالكين .

إلا أن هناك قوماً صلحت أحوالهم وآمنوا باللّه ورسُلهُ ، ووفقهم الله للطاعات، وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وليس لإبليس وجنوده عليهم سبيل، لا يستطيع الغلبة عليهم مهما امتدت به وبذريته السنون، ومهما طالت بهم الأعمار، يتضح ذلك من قول الله تعالى: ﴿ **قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ** ﴿٤١﴾ ﴾[**الحجر**] ، ما هو يارب هذا الصراط الذى التزمت به من نفسك؟ قال تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴿٤٢﴾ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴿٤٣﴾ **لَهَا**

سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾[الحجر] وقوله ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الحجر] هؤلاء الصالحون المخلصون كانوا كما علمهم المولى سبحانه وتعالى يلجأون إليه فى كل شىء يستمدون منه العون والتأييد لأنه خالق الأسباب والمسببات ، قال تعالى﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾[غافر] . فكانت أدعيتهم التى وردت فى أربع عشرة سورة من الكتاب العزيز وهى : البقرة، آل عمران، المائدة ، الأعراف، يونس ، يوسف، الكهف، طه، مريم، المؤمنون، الفرقان، الشعراء، الأحقاف، والتحريم، أوردناها فى كتابنا هذا للتأسى بهم وهم نعم الأسوة ونسير على منهاجهم ، ونبراساً نستضىء به فى حياتنا ، خصوصاً إذا علمنا أن هؤلاء الصالحون قد وعدهم الله الثواب الجزيل فى الجنة والنجاة من النار فى الآخرة.

ولن نجد خيرٌ من كلام الله - الذى جاء على لسان أنبيائه وعباده الصالحين - لندعوه به نطلب غفرانه ورضاه ورحمته . . وسبق أن أخرجنا كتاب «دعاء الأنبياء والرسل» وبين أيدينا هنا «دعاء الصالحين» ، وسوف نتعلم من هؤلاء الصالحين كيف يقفون بين يدى الله فى خشوع ورهبة وخوف من التقصير ويطلبون الغفران لذنوبهم، ولا يشفع لهم عملهم الصالح، ولا يشفع لهم عبادتهم وتقواهم إلا أن يتغمدهم الله برحمته، وسنعيش من خلال هذا العرض ونرى كيف يناجى العبد الصالح ربه وهو فى أشد المحنة والابتلاء . . لا يطلب رفع البلاء ، ولا يقترح عليه سبحانه شىء، ولكنها النجوى والالتجاء إلى حمى الله.

والدعاء سُنّة الأنبياء والمرسلين عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وسُنّة المؤمنين الصالحين ممن معهم وممن بعدهم ، فما من نبى ولا ولى صالح للَّه صادق مخلص رفع الشكوى إلى اللَّه إلا استجيبت دعوته ، ولم تُضع بين يدى الله عبرته وخشيته، وإذا تصفحنا كتاب الله العظيم، وقرأنا أخبار الأنبياء والصالحين التقينا أن بركة الدعاء لا حد لها «وليس شىء أكرم على اللَّه عز وجل من الدعاء» .

اللهم أصلح قلوبنا ، وأزل عيوبنا، وتولنا بالحسنى، وزيّنا بالتقوى، واجمع لنا خيرى الدنيا والآخرة، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واهدنا إلى الحق وإلى صراطك المستقيم ، إنك على كل شىء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلفان

الباب الأول

دعاء الصالحين

أهل الجنة الأبرار (من الإنس والجن)

وردت فى أربع عشرة سورة من سور القرآن الكريم:

البقرة، آل عمران، المائدة، الأعراف، يونس،

يوسف، الكهف، طه، مريم، المؤمنون ، الفرقان،

الشعراء، الأحقاف، التحريم

الفصل الأول

الدعاء الأول : دعاء جند طالوت عند لقاء عدوّهم العمالقة :

قال الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ .. قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾[البقرة] .

نقاط بحث هذه الآيات :

١ - صلتها بما قبلها .

٢ - من هم الداعون ؟

٣ - ما نص دعائهم ؟

٤ - ما المفهوم من دعائهم ؟

٥ - ما ثمرة هذا الدعاء ؟

١ - صلة الدعاء بما قبله :

هذا الدعاء يحكى جولة عسكرية بين بنى إسرائيل ومغتصبى أرضهم من العمالقة كما يحكى تضرعهم واستغاثتهم بالله طالبين منه النصر على هؤلاء الكفار وتمكين أسبابه من نفوسهم بإضفاء الصبر عليهم وتثبيت قلوبهم على مجالدتهم وحربهم .

وصلة هذه الآية تمتد بقوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ

موسى ﴿٢٤٦﴾ ﴾[البقرة] إلى قوله ﴿**تلك الرُسُلُ** .. ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة] .. ولإيضاح هذه الصلة قال المفسرون وفى مقدمتهم الإمام الألوسى مع تصرف فى النقل: أنه روى عن بعض الآثار أنه لما مات «موسى» خلفه «يوشع» فى التوراة وفى بنى إسرائيل، ثم خلفه «كالب»، ثم خلفه «حزقيل» ثم «إلياس» ثم «إلياسين» فاستولى عليهم العمالقة وهم قوم جالوت وكانوا يسكنون بحر الروم بين مصر وفلسطين واحتلوا أكثر أراضيهم وأسروا (٤٤٠) من أبناء ملوكهم وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم .. وذلك لعدم وجود من يدبر أمرهم، حيث هلك سبط النبوة غير حمل فى بطن أمه فلما ولدته أسمته «أشمويل»[١] ومعناه إسماعيل فلما كبر تعلم التوراة فى بيت المقدس وكفله شيخ كبير من علماء بنى إسرائيل، فكان لا يأمن عليه أحداً إلا نفسه حتى كان ينام بجانبه فوافاه جبريل وهو نائم بجانب الشيخ يخبره بإنباء الله له قائلاً له: اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك، فإن الله تعالى قد بعثك فيهم نبياً. فلما أتاهم وأنبأهم قالوا له استعجلت بالنبوة ولم يأن لك إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً فدعا الله تعالى فاستجاب له وأقام طالوت لهم ملكاً فقالوا: كيف يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال. قال لهم: إن الله قد اصطفاه عليكم وآتاه بسطةً فى العِلْم والجسم[٢]. قالوا: وما الدليل على أن الله أقامه ملكاً علينا فسأل «أشمويل» نبيهم ربه أن يأتيهم بدليل ليؤمنوا أن الله قد جعل طالوت لهم ملكاً فأعلمه الله تعالى أن يخبرهم أن الدليل على صحة مُلْكه أن الملائكة ستحمل التابوت وتضعه بين يديه وأنتم ترون ذلك بأنفسكم .. (وكان فى هذا الصندوق بقيةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون، ولعل الراجح من الروايات أن فيه التوراة وبعض آثار من موسى وهارون وقد استحوذ عليه العمالقة)، فلما وضعت الملائكة الصندوق بين يدى طالوت وصدقوا وأسرعوا إلى القتال فلما خرج بهم عن بين المقدس وكان الوقت حاراً عطشوا فطلبوا من طالوت الماء، فقال لهم: إن الله مبتليكم

---

(١) وقيل: شمعون وهو من أنبياء بنى إسرائيل قاله مقاتل.

(٢) قال ابن كثير : ومن ههنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن، وقوة شديدة فى بدنه ونفسه (مختصر ابن كثير١/ ٢٢٤).

ومختبركم بنهر فمن شرب منه مباشرة أو كرعاً كثيراً فلا يخرج معى فى الحرب، لأنه ليس طائعاً ومن لم يَطْعمه فإنه منى يخرج معى لحرب العدو ويتجاوز الله عمن اغترف غرفةً فلم يستجيبوا لقوله فشربوا منه إلا قليل منهم(٣). والبعض لم يشرب البتة والبعض اكتفى بغرفة واحدة وهى المتجاوز عنها . . وكان هؤلاء وهؤلاء على عدة أهل بدر ٣١٣ رجلاً، والحقيقة أنهم كانوا آلافاً وبهذا العدد جاوز طالوت النهر واتجه صوب الأعداء.

فهؤلاء الذين برزوا مع طالوت لمحاربة جالوت وجنده العمالقة الذين ساموهم سوء العذاب . . هؤلاء كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وروى أنه قال لقومه لا يخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا تاجر مشتغل بالتجارة ولا متزوج بامرأة لم يبن عليها ولا ابتغى إلا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع إليه ثمانون ألفا ، وقيل سبعون. . هؤلاء تفوهوا بأربع جمل فيها العظة والعبرة خصوصاً فى مثل هذه المواطن التى تظهر فيها الرجولة الكاملة والإيمان الكامل والاعتماد والتوكل على الله تعالى.

الجملة الأولى : ﴿ ... **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴿٢٤٩﴾ ﴾[**البقرة**].

لما قال الذين عصوا طالوت ولم يكتفوا بالغَرْفة الواحدة ﴿ .. **قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ** .. ﴿٢٤٩﴾ ﴾[**البقرة**]. . هم كثير ونحن قلة . . وهم أقوياء ونحن ضعفاء واليوم حرٌ شديد فلا قُدْرة لنا على قتالهم فجبنوا وتخلفوا . . فلما سمع الطائعون للّه ولطالوت وهم الذين لم يشربوا إلا غرفةً واحدة وهى المسموح بها. . لما سمعوا ذلك ونظروا إلى قِلَّتهم ورأوا انسلاخ إخوانهم عنهم وهم ألوف

---

(١) كانوا ثمانين ألفاً أخذهم طالوت فى أرض قفرة فأصابهم حر وعطش شديد فلما جاوزوا بيت المقدس أراد الله أن يختبر على يديه إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض بهم غمار الحرب فاختبرهم بنهر الشريعة المشهور بين الأردن وفلسطين، فأذن لهم برشفة من الماء تُذهب العطش لكنهم عصوه وشرب الجيش منه إلا فئة قليلة صبرت على العطش قال السدى: شرب منه ستة وسبعون ألفاً وتبقى معه أربعة آلاف وهم الذين اجتاز بهم النهر وصبروا على العطش والتعب ولقاء العدو . . وكان منهم هذا الدعاء، وكان لهم الغلبة والنصر على عدوهم بإذن الله تعالى.

كثيرة[1]. . وقارنوا بين عددهم وعدد المنسلخين منهم وبين عدوهم وهم جم كثير . . أدركتهم مع هذه النظرات المتعددة والمقارنة التى أثبتت لهم التفاوت الكبير بينهم وبين أعدائهم ، أدركتهم عندئذ رحمة الله وأسعفهم ما فى قلوبهم من إيمان ، وأنقذتهم عقيدتهم الصحيحة بيوم البعث وأنهم لا محالة ملاقون اللّه تعالى .

لما تحركت فيهم هذه المعانى كلها وملأت عليهم شعورهم وحواسهم انطلقوا غير عابئين بما أحاطهم من انسلاخ إخوانهم، وكثرة عدوهم، انطلقوا ليقرروا مبدأين اثنين لا ثالث لهما .

المبدأ الأول : أن الغَلَبة لا ترتكز على كثرة العدد كما أن الهزيمة لا تكون أهم أسبابها قلَّة الجند، ولعل إيمانهم هو الذى دفعهم إلى اعتقاد ذلك أو قرأوا سيَر الماضين فقالوا: ﴿ ... **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ** .. ﴿٢٤٩﴾ ﴾ . . لا لأن الفئة القليلة قوية الأجسام عاقلة حكيمة، مُدَبِّرة فى تصرفها ، أو لأن الفئة القليلة تجيد فن الحرب أكثر من غيرها . . أو لأن السلاح متوفر فى أيديها . . لم يفكروا فى ذلك كله حينما قالوا مقالتهم سالفة الذكر . . بل نسبوا كل شىء إلى الله تعالى فذيَّلوا هذه الآية بما يفيد تمام إيمانهم وكمال ثقتهم فى اللّه تعالى فقالوا: «بإذن اللّه» أي لا غلبة لنا ولا نصراً نحققه إلا بمشيئة الله تعالى. . وهاتان الكلمتان وتلكم اللفظتان وهما (بإذن - الله) أعظم دليل على عمق الإيمان والتوحيد والتوكل على الله إذ يحملان فى ثناياهما أعظم وأبلغ التضرع والاستنجاد بالله تعالى. . فمن شاء الله له تعالى النصر كان وما لم يشأ له ذلك لم يكن .

المبدأ الثانى : هو التجمُّل بالصبر فى مواطن الجهاد والنضال وعند ملاقاة الأعداء وعند نزول البلاء وعظم الشدائد وكثرة الأهوال. . وتعدد الكربات، لذلك قالوا: ﴿ **وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ ، وهذه المعية دائماً معها النصر ولقد جرى سنن القرآن على ذلك. . والمتتبع لهذه المعية فى القرآن الكريم يجد ذلك واضحاً جلياً . . فهذا التذييل وتلكم الجملة تقرير منهم لمبادئ الحياة الناجحة المتقدمة المتطورة، فقلَّ أن يجد المرء عاملاً ناجحاً فى عمله دون أن يكون الصبر قرينه وعلْيته . . كما أنه قلَّ أن تجد أُمَّة تنجح فى مسارها دون أن يكون الصبر طبيعتها وسجيتها . . ولعلهم عرفوا أن هذه

المعيَّة الإلهية السامية إنما تكون مع الصابرين من توراتهم أو من تجارب حياتهم ومن سير الماضين فى حقب التاريخ . . أو منهما معاً . .

الجملة الثانية : ﴿ . . قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا . . ﴿٢٥٠﴾ ﴾[البقرة]. فهم يطلبون من اللَّه تعالى أن يفرغ عليهم الصبر إفراغا وأن يصبه عليهم صباً . . ودعوتهم هذه إنما جاءت بعد تقريرهم وإقرارهم أن الله تعالى دائماً مع الصابرين . . ويستحيل أن يتخلف النصر عن قوم الله معهم . . فهذه الدعوة تظهر ما أبهموه فى قولهم : ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . . كما أنها تبين رغبتهم الشديدة فى أن يكون الله معهم . . ولذلك يطلبون أسباب هذه المعية وأفضل أسبابها ألا وهو الصبر . . والصبر من أعظم محامد الجنس البشرى إذ هو حبس النفس على ما تلاقيه من مشاق ومتاعب فى الدنيا .

والمراد بالصبر هنا ما كان خاصاً بمواطن القتال والنزال مع الأعداء . . ولقد طلبوا الصبر بصورة الإسباغ حيث عبروا عنه بالإفراغ تعظيماً لشأنه وأتوا (بعلى) الدالة على العلو وكأن الصبر يأتى من عل . . وليفيد ذلك الشمول والإحاطة . . وهذه هى الدعوة الأولى . . أي اجعلنا مغمورين فى الصبر عند ملاقاة أعدائك وأعداء دينك .

الجملة الثالثة : ﴿ . . وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا . . ﴿٢٥٠﴾ ﴾[البقرة]. ولا ينبغى أن يصرف الذهن إلى تثبيت أقدامهم فى حيز واحد إذ ليس فى ذلك كبير فائدة ولا كثير جدوى . . كما أن هذا ليس من شئون الحرب إذ الحرب مكر مفر مقبل مدبر أي جولان وصولان . . ولكن المقصود من طلب تثبيت أقدامهم هنا هو منحهم الشجاعة وكمال القوة وعظم الرسوخ عند المقارعة بحيث لا يضطربون ولا يتزلزلون ولا يترددون، فيثبتون فى ميدان الحرب ولا يكون للفرار سبيلاً إلى قلوبهم ، وهى الدعوة الثانية .

الجملة الرابعة : ﴿ . . وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . . ﴿٢٥٠﴾ ﴾[البقرة]. ختموا دعائهم بهذه الجملة التى تعتبر بحق نتيجة لدعائهم وتضرعهم، أي أعنا يا رب عليهم حتى نقهرهم ونهزمهم . . وضمَّنوا بلباقتهم وذكائهم علَّة طلبهم بالنصر عليهم بأنهم أي أعداؤهم قوم كافرون عادُوا اللَّه وحاربوا أتباع دينه .

والجمل الثلاث : الثانية والثالثة والرابعة ما هى إلا تفصيل بعد إجمال ، وتوضيح بعد إبهام، وإطناب بعد إيجاز ، لقوله تعالى : ﴿ .. **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴿٢٤٩﴾ ﴾

هل استجاب الله دعائهم ؟

نعم : لقد استجاب الله دعاءهم بصورة دلت على عنايته تعالى الكاملة بالمؤمنين به وأنه أقرب لنجدتهم وأسرع إلى نصرهم فقال تعالى: ﴿ **فهزموهم بإذن الله** ﴾ . وجاءت (الفاء) لتدل على تعقيب النصر لدعائهم، حيث أجاب دعاءهم فصبرهم وثبتهم ونصرهم فكانت الهزيمة لأعدائهم والغلبة لهم . . وقتل داود ابن ايشا ويقال: هو ابن زكريا بن بشوى من سبط يهوذا بن يعقوب . . قتل داود هذا جالوت عظيم العمالقة الذين هم فرقة من عاد وكانوا بأريحا . . وأتى اللَّه المُلك لداود بعد قتل جالوت وهلاك طالوت، حيث كان قد اشترط طالوت لداود إن هو قتل جالوت وهزم جنده أن يزّوجه ابنته ويعطيه ملكه وفعلا وفىّ بالزواج والملك بعد لأي، غير أن طالوت حسد داود لحب الناس له فحاول قتله . . ولكن الله سلَّم ثم ندم طالوت وكفَّر عن سوء نيته فى قتل داود وخرج معه بنية العشرة يقاتل فى سبيل الله تكفيراً لما حصل منه حتى استشهد هو وبنوه. . فاجتمعت بنوا إسرائيل على داود وملَّكوه أمرهم فهذا إيتاء اللَّه له **المُلْك** . . أما الحكمة فالمراد بها النُّبوَّة وذلك بعد موت نبيهم «أشمويل» . . واجتمع فى يد داود المُلك والنُّبوة ولم تجتمع لأحد قبله ، بل كان المُلك فى سبطٍ من أسباطهم ، والنبوة فى سبطٍ آخر، وكان موت هذا النبى (أشمويل) قبل استشهاد طالوت فى سبيل الله . . ثمَّ قال تعالى: ﴿ .. **وعلمه مما يشاء** و .. ﴿٢٥١﴾ ﴾[**البقرة**] ، وذلك كصنعه اللبوس ومنطق الطير وكلام الدواب.

ولعل استجابة الله تعالى لدعائهم بهذه السرعة دليل على أن دعائهم هذا حمل الكثير من الإخلاص، وحُسن النّية والتعبير والكثير من اللطائف والتأدب والتضرع لله تعالى والفوائد البلاغية.

أهم الفوائد :

١ - في دعائهم توسُّل بوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال .

٢ - وفيه الإفراغ وهو يؤذن بالكثرة .

٣ - وفيه جعل الصبر بمنزلة الماء المنصب عليهم لثلج صدورهم وإغنائهم عن الماء الذين منعوا منه ، وفيه استعارة تمثيلية فقد شبه حالهم والله تعالى يفيض عليهم بالصبر بحال الماء يصب ويفرغ على الجسم فيعمه كله ، ظاهره وباطنه فيلقى في القلب برداً وسلاماً وهدوءاً واطمئناناً .

٤ - وفيه التعبير «بعلى» المشعرة بجعل ذلك كالظرف وجعلهم كالمظروفين .

٥ - وفيه تنكير «صبرا» وهذا يُفْصح عن التفخيم .

٦ - وفيه أن الدعاء الثاني وهو تثبيت الأقدام بمثابة الترشيح لجعل الصبر بمنزلة الماء في الطلب الأول إذ مصاب الماء مزالق فيحتاج فيها إلى التثبت .

٧ - وفيه حسن الترتيب، حيث طلبوا أولا : إفراغ الصبر على قلوبهم عند اللقاء .

وثانياً : طلبوا ثبات القدم والقوة على مقاومة العدو ، حيث أن الصبر قد يحصل لمن لا مقاومة له .

وثالثاً : بعد أن دعوا الله ضارعين إليه بدعوات تفيد إدراك أسباب النصر فقالوا : ﴿ **وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴿٢٥٠﴾ ﴾[**البقرة**] تضرعوا إلى الله تعالى أن ينصرهم على أعدائهم الكافرين المكذبين للّه ولرسله، حيث أن الشجاعة بدون النصر لا فائدة فيها ولا نفع ، وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ في كل المواطن ، وروى عنه في قصة بدر أنه عليه السلام لم يزل يصلي ويستجنزون الله وعده، وكان متى لقي عدواً قال : « اللهم إني أعوذ بك من شرورهم واجعلك في نحورهم» ، كان يقول «اللهم بك أصول وبك أجول» .

وأعلم أن الأمور المطلوبة عند المحاربة مجموع أمور ثلاثة : أولها: أن يكون الإنسان صبوراً على مشاهدة المخاوف والأمور الهائلة ، وهذا هو الركن الأعلى للمحارب فإنه إذا كان جباناً لا يحصل منه مقصود أصلاً، وثانيها : أن يكون قد وجد من الآلات والأدوات والاتفاقات الحسنة مما يمكِّنه أن يقف ويثبت ولا يصير ملجأ إلى الفرار. وثالثها : أن تزداد قوته على قوة عدوه حتى يمكنه أن يقهر العدو[1].

(١) التفسير الكبير (٦/ ١٥٨).

الفصل الثانى

دعاء الراسخين فى العلم :

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾

[آل عمران]

يرتبط هذا الدعاء بالآية السابقة التى أولها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ .. ﴿٧﴾ ﴾ ففيها يخبر الله تعالى نبيه المصطفى أنه أنزل عليه القرآن وفيه من الآيات المحكمات التى هى أمه أي أصوله التى يعتمد عليها فى الأحكام وهى واضحات الدلالة ، كما أن فيه أيضاً من الآيات المتشابهات التى لا يفهم معانيها كأوائل السور مثلاً . . ثم أخبره تعالى أن الناس بالنسبة لهذين النوعين قسمان :

١ - فريق ضعف إيمانه وزاغت بصيرته فتتبع المتشابه من القرآن تأويلاً للفتنة والإضلال .

٢ - وفريق ثان هم الراسخون الثابتون على الإيمان المتمكنون من العلم لا يسلكون مسلك الأولين فى تتبعهم للآيات المتشابهات بل يؤمنون بالمتشابه كإيمانهم بالآيات المحكمات قائلين :

﴿ ... كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٧﴾ ﴾[آل عمران] .

ولكن من هم الراسخون ؟

هم قوم كشف اللّه اللثام عن حقيقتهم بالصفة لا بالذات فقال مادحا لهم : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ إذاً لا مانع من فضل الله تعالى أن يكون هذا الصنف من الناس فى كل عصر وجيل وفى أي بقعة من الأرض فالله تعالى وصفهم وامتدحهم بأن لهم قدماً ثابتاً فى العلم ولهذا لم يسلكوا دروب الذين فى قلوبهم زيغ بل عمقهم فى العلم جنبهم المزالق وأنطقهم بأن القرآن كله بما

فيه من محكم ومتشابه هو من عند الله فلذلك هم مصدقون ومؤمنون به . . ولقد وصفهم المصطفى بصفات ثلاث، فقد أخرج ابن عساكر من طريق عبدالله بن يزيد الأزدى قال:

سمعت أنس بن مالك يقول: سئل رسول الله ﷺ عن الراسخين فى العلم فقال: «**من صدق حديثه، وبر فى يمينه، وعف بطنه وفرجه فذلك الراسخون[1] فى العلم**»[2].

ويتضح موقف الراسخين فى العلم من المتشابهات القرآنية من خلال آراء العلماء فى حقيقة المتشابه والمحكم، وهل الواو فى الجملة للعطف أو للاستئناف. . ؟

لقد أفاض المفسرون ورجال الفقه فى حقيقة كل من المحكم والمتشابه وذكروا تعريفات لهما كثيرة جداً لا يتسع المقام لسردها، وإنما نورد منها النذر اليسير على سبيل الإيضاح . .

ذهب الأحناف إلى أن المحكم هو الواضح الدلالة الظاهر الذى لا يحتمل النسخ.

والمتشابه هو النفى الذى لا يُدرك معناه عقلاً ولا نقلاً، وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه كقيام الساعة والحروف المقطعة فى أوائل السور.

وذكر الإمام الشوكانى فى تفسيره ما يزيد على ستة آراء للعلماء فى المحكم والمتشابه منها قوله:

المحكم ناسخه وحرامه وحلاله وفرائضه وما نوء من به ونعمل عليه.

والمتشابه منسوخه وأمثاله وأقسامه وما نؤمن به ولا نعمل به . . ثم قال روى هذا

---

(١) الرسوخ فى لغة العرب هو الثبوت فى الشيء، وأصله أن ترسخ الخيل أو الشجر فى الأرض، ومنه قول الشاعر:

لقد رسخت فى الصدر منى مودةٌ ... لليلى أبــت آياتهــا أن تُغَـيَّرا

(٢) وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ٣٤٧.

عن ابن عباس، ثم قال والأولى أن يقال: أن المحكم هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره، أما المعنى الذى تحمله الواو فى هذه الجملة فقد ذهب العلماء فيها إلى رأيين هما ما يلى :

الرأى الأول :

أنها للاستئناف أي أن الله اختص نفسه بعلم المتشابه من القرآن والراسخون يؤمنون به دون العلم بتأويله ذكر الشوكانى أن هذا الرأى هو الذى ذهب إليه الأكثر منهم ابن عمر وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز وأبى الشعثاء وأبى نهيك وغيرهم . . كما قال الشوكانى وهذا مذهب الكسائى والفراء والأخفش وأبى عبيد وحكاه ابن جرير والطبرى عن مالك واختاره وحكاه الخطابى عن ابن مسعود وأبى بن كعب.

الرأى الثانى :

وهو القائل بأن الواو للعطف أي عطفت الراسخين على لفظ الجلالة فهم يعلمون المتشابه لذلك امتدحهم اللّه، ومن هذا الفريق مجاهد، حيث روى عنه أنه نسق الراسخين على ما قبله وزعم أنهم يعلمون الآيات المتشابهة واحتج له بعض أهل اللغة[١].

وقال القرطبى : روى عن ابن عباس أن «الراسخين» معطوف على اسم الله عز وجل وأنهم داخلون فى علم المتشابه وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به . . وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم . .

ومن جملة ما استدل به القائلون بالعطف أن الله سبحانه وتعالى مدحهم بالرسوخ فى العلم فكيف يمدحهم وهم لا يعلمون المتشابه من الآيات القرآنية . .

---

(١) فتح القدير للشوكانى.

وممن رجحوا هذا الرأى ابن فورك، حيث قال إن الراسخين يعلمون تأويله وأطنب فى ذلك.

وكذلك ممن رجحوا هذا الرأى أيضاً جماعة من المفسرين حتى قال القرطبى:

قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وهو الصحيح فإن تسميتهم راسخين تقتضى بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب وفى أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلمه الجميع[1].

(مقولات الراسخين)

- هى سبع جمل كاملة -

المقولة الأولى:

﴿آمنَّا به﴾ هذه الجملة فى محل نصب مقول القول والقول مقوله مستأنف وقع حالا للراسخين ولهذا فصلت عما قبلها ، أو هى خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ﴿يقولون آمنَّا به﴾ وذلك جرياً على التزامهم فى ذلك .. والضمير فى ﴿به﴾ مرجعه أحد أمرين : إما أن يكون راجعاً إلى المتشابه، لأنه أقرب مذكور له ويكون عدم التعرض لإيمانهم المحكم لظهوره.

وأما أن يكون الضمير راجع إلى الكتاب فى قوله تعالى ﴿نزَّل عليْك الْكتاب بالْحقِّ .. (٣)﴾ وهو القرآن الكريم فهم بهذه الجملة يعلنون إيمانهم الكامل بالمتشابه سواء علموا تأويله أم لا ، أو يعلنون إيمانهم به وبالمحكم معا، ولعل الحكمة من إعلانهم الإيمان بذلك تعريض لمن تجرأ على المتشابه بالتأويل..

وينبغى مع ملاحظة نكتة التعريض هذه أن نقول: إن هذه المقولة ليست خاصة بالراسخين، ولكنها نسبت إليهم للتعريض بمن تصدوا للمتشابه بالتأويل وكأنه قيل: غير الراسخين ليسوا بمؤمنين.

---

(١) تفسير القرطبى..

المقولة الثانية :

﴿ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ هذه الجملة ساقها الراسخون فى العلم تأكيدًا وتقريرًا للجملة السابقة أي كل آية محكمة أو متشابهة هى منزلة من عند الله تعالى فلا تباين بينهما.

وإيثار لفظ الربوبية على لفظ الألوهية لتضمنه معنى التربية والنظر فى مصالح العباد كما أن فيه نكتة لطيفة ألا وهى الإيصال إلى معارج الكمال أولاً فأول، حتى قالوا: إنما أنزل المتشابه لذلك ليظهر فضل العلماء ويزداد حرصهم على الاجتهاد فى تدبره وتحصيل العلوم التى بها نيط استنباط ما أريد به من الأحكام الحقيقية فينالوا بذلك المدارج العالية . . وفى ذلك من التربية والإرشاد أقصى غاية فى رعاية مصالح العباد.

المقولة الثالثة :

﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ أي ما يتّعظ ويتدبر إلا أصحاب العقول السليمة المستنيرة وتقول كتب التفاسير إن هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ ﴾ سيقت من جهته تعالى فى مقام المدح للراسخين بجودة ذهنهم وحسن نظرهم أي وما يعقل إلا أولوا الألباب وأصحاب العقول الخاصة الخالصة وهم الراسخون فى العلم الواقفون عند متشابهه أو العالمون به وبمحكمه العاملون بما أرشدهم الله تعالى إليه فهؤلاء قد تجردت عقولهم عما يغشاهم من الركون إلى الأهواء الزائفة المكدرة واستعدوا إلى الاهتداء إلى معالم الحق . . وللإشارة إلى كل هذا وضع الظاهر وهو ﴿ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ موضع ضمير الراسخين.

أو يمكن القول: بأن هذه الجملة أمر جاء فى صورة الإخبار لتنهض إليه همم أمة المصطفى ﷺ فيبذلون من الجهد والممارسة ما يستطيعون به أن يكونوا فى سلك أولى الألباب.

المقولة الرابعة :

﴿ ربنا لا تُزِغْ قُلُوبنا بعْد إذْ هديْتنا ﴾ أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبِّتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم.

المقولة الخامسة :

﴿ وهبْ لنا من لَدُنكَ رحْمَةً ﴾ تُثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا وتزيدنا بها إيماناً وتوفيقا ﴿ إنَّكَ أنتَ الْوَهَّابُ ﴾ أي أنت يا رب المتفضل على عبادك بالعطاء والإحسان.

وهي المقولة السادسة، وقد ساقها الراسخون ثناءً منهم على الله تعالى واستدراراً لطلباتهم التي أعظمها رحمته تعالى.

ويقول أبو السعود في تفسيره: «ومقصودهم بهذا الدعاء عرض كمال افتقارهم إلى الرحمة، وأنها المقصد الأسنى عندهم ».

ويقول في تفسير الجلالين: «والغرض من الدعاء بذلك : بيان أن همهم وأمر الآخرة، ولذلك سألوا الثبات على الهداية لينالوا ثوابها»(١).

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن شهر بن حوشب عن النبي ﷺ كان يقول: «**يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»، ثم قرأ ﴿ **ربَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبنا بعْد إذْ هديْتنا وهبْ لنا من لَدُنكَ رحْمَةً إنَّكَ أنتَ الْوَهَّابُ** ۝٨ ﴾[**آل عمران**].

ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن بكار عن أم سلمة عن أسـماء بنت يزيد ابن السكن سمعتها تحدّث أن رسول الله ﷺ كان يكثر من دعائه : « **اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» قالت : قلت يا رسول الله : وإن القلب ليتقلّب؟ قال: «**نعم ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز**

---

(١) تفسير الجلالين - ص ١/٢٤٥.

وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه» فنسأل الله أن لا يُزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال : « **لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك اللهم زدني علما، ولا تُزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** » .

المقولة السابعة :

﴿ **ربَّنا إنَّكَ جامعُ النَّاسِ ليوْمٍ لاَّ ريْبَ فيه إنَّ اللَّهَ لا يُخْلفُ الْميعاد** ﴿٩﴾ ﴾[**آل عمران**] . هذه المقولة مكونة من جملتين : الأولى فيها اعتراف منهم بيوم البعث الذى يجمع الله فيه الخلائق كلها ليظهر واضعاً أن المُلْك للَّه الواحد القهار . . أي يا ربنا إنك باعث الناس ومحييهم وسائر الخلائق (بعد موتهم وتفرقهم) ليوم القيامة والحساب والجزاء وهذا اليوم لاشك فيه بل هو واقع لا محالة ، فهم بهذه الجملة يثنون على الله تعالى فى أنه العالم المريد القادر، وثناؤهم هذا فى مقام دعائهم السالف دليل على رغبتهم فى أن يُجنِّبهم الله تعالى ويلات هذا اليوم فهى وإن كانت منهم ثناء إلا أنها هادفةً إلى الدعاء، يوضِّح ذلك ويَدْعمه الجملة الثانية وهى ﴿ **إنَّ اللَّهَ لا يُخْلفُ الْميعادَ** ﴾ ، إذ هى تعليل لمضمون ما قبلها وكأنهم قالوا : يارب إنك وعدت المؤمنين المحسنين بالجنة ووعدك الحق ولهذا آثروا لفظ الألوهية على الربوبية لإفادتهم التنزيه الكامل لله جل شأنه ، أي أن الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه وخلفه يخالف الألوهية كما أنها تنافيه وتباينه . . كما أن إيثار إظهار الاسم الجليل على الضمير مع ما فيه من الالتفات للإشارة إلى تعظيم الموعود والإجلال الناشيء من ذكر اليوم المهيب الهائل وللإشعار أيضاً بعِلِّية الحكم إذ الألوهية منافية للإخلاف وكيف يصح الخلف من أكرم الأكرمين والحال أن الإنسان الكريم يخبر عن نفسه قائلا :

وإنى إذا أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادى وينجز موعدى

(١) تفسير الجلالين : ص ٢٤٥/ ١ .

وهذا الدعاء الذى نسبه الله تعالى إلى الراسخين لم يبين ذواتهم ولم ينسبهم إلى طائفة معينة وعليها نقول :

١ - إما أن يكون الله تعالى قد أراد «وهو أعلم بمراده» إخبار الخلق بأن من عباده من رسخ فى إيمانه ولم تزعزعه الشكوك والرِّيب فتدفعه لزوغان عقيدته وذلك بتعقبه ما تشابَه من القرآن الكريم أو بعلمه ما تشابه منه . .

٢ - أو أراد جل شأنه توجيه أمة الحبيب عليه الصلاة والسلام فى أن يثبتوا على عقيدتهم ويعملوا بالمحكمات من القرآن، أما الآيات المتشابهات فيكون عِلْم أمرها وحقيقة شأنها للّه تعالى؛ ولا مانع من إرادة الله تعالى لهذين المعنيين والله جل شأنه هو الأعلم بمراده .

(ما يمكن استنباطه من دعاء الراسخين فى العلم)

١ - أفاد هذا الدعاء أن القرآن الكريم فيه آيات محكمات وأخر متشابهات وهذا فى سورة آل عمران وأفادت الآية الأولى من سورة هود أن القرآن كله أحكمت آياته ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾[هود] .

فالمقصود من هذه الآية إثبات أن القرآن مُنَزَّهٌ عن العيب وخال من النقص . . كما أفادت الآية الثالثة والعشرون من سورة الزمر أن القرآن كله متشابه قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ... الآية ﴿٢٣﴾ ﴾ . . أي يشبه بعضه بعضاً فى الحُسْن والصدق - إذاً فلا تعارُض فى هذه الآيات الثلاث .

٢ - الآيات المحكمات هى الواضحات الظاهرات الدلالة ولذلك يعلم معانيها العباد . .

٣ - الآيات المتشابهات التى استتر فيها المعنى، ولم يتضح كاملاً، فالله استأثر بعلمهما أوَمنَّ على بعض خَلْقه، وهم الراسخون فعرفوا تأويلها .

٤ - طلب استقرار القلوب على توحيد الله والإيمان بكل ما جاءت به رُسلُه لأن القلوب فى تقلّب مستمر ولا مثّبت لها إلا الله .

٥ - طلب البعد عن الزيغ أمرٌ مُستَحب بل هو واجب مُطَالب به كل مسلم.

٦ - الإقرار بأن المحكم والمتشابه من القرآن الكريم أمرٌ لابد من الإيمان به.

٧ - رحمة الله واسعة وهى شاملة لمطلق الإحسان والإنعام، لذلك فكل واحد من الخلق يطلب ما يناسبه منها.

٨ - الإقرار بأن يوم البعث واقع لا محالة ولا ريب فى ذلك.

٩ - الثناء على الله تعالى بما هو له أهل أمر مرغوب فيه خصوصاً إذا ناسب الدعاء ومُزِجَ به.

١٠ - قد يخلف الله وعيده وهذا من شأن الكرام، ولا يخلف الله وعده لأن ذلك من مقتضيات العدل والإحسان.

دعاء عباد الله

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) ﴾

[آل عمران]

يصف الله تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ونجِّنا من عذاب النار.

وعباد الله المتقين هم المؤمنون المثاليون الذين حَسُنت صلتهم بأنفسهم وبالخلق والخالق.

- هم كما وصفهم الله تعالى ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧) ﴾[آل عمران]..

- هم الصابرون عن المعصية بمحاربتها ومجانبتها، وعلى الطاعة بتكاليفها والتزاماتها.

- القانتون : الخاضعون للّه وحده .

- المنفقون : الباذلون أموالهم فى أوجه النفع والبر والخير والصالح العام وصلة الأرحام والقرابات ، وسد الخلات، ومواساة ذوى الحاجات ،

- والمستغفرون بالأسحار . . فى هدأة الليل وقبيل ميلاد الفجر، حيث تنام العيون إلا عيون المتهجدين .

وقوله تعالى: ﴿ **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ دلّ على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه ﴿ .. **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي** .. ﴿٩٨﴾ ﴾[يوسف] أنه آخرهم إلى وقت السحر، وثبت فى الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال «**ينزل الله تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخير، فيقول (هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فاستجيب له؟ هل من مستغفر فاغفر له؟)**».

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه وآخره فانتهى وتره إلى السحر، وكان عبدالله بن عمر يصلى من الليل ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال : نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح[1] وروى ابن جرير عن إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال: سمعت رجلاً فى السَّحر فى ناحية المسجد وهو يقول: « يا رب أمرتنى فأطعتك وهذا السَّحر فاغفر لى، فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضى الله عنه . وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: كنا إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السَّحر سبعين مرة .

ونعود من حيث بدأنا إلى عباد الله المتقين . . هؤلاء العباد الذين يعملون ويرجون رحمة ربهم ، ويخشونه بالغيب وهم من الساعة مُشْفقون .

- يؤرقهم ما ارتكبوا من لمم أو زلل ، ويقلقهم سوء الخاتمة .

---

(١) ورواه أيضاً ابن أبى حاتم.

- هدفهم مغفرة الرب وهمهم النجاة من عذاب الله يوم القيامة.

- لذا يطلبون غفران الذنب ويطمعون فى الثواب يوم الحساب. فلا جرم أن كان ترداوهم: «اللهم لا تردنا بعقوبتك، ولا تؤاخذنا بتقصيرنا عن رضاك، قليل أعمالنا تقبل، وعظيم خطايانا تغفر، أنت الله الذى لم يكن شىء قبلك، ولا يكون شىء بعدك، وليّ الأشياء. ترفع بالهدى من تشاء، لا من أحسن استغنى عن عونك، ولا من أساء، ولا من استبد بشىء من حكومتك وقدرتك، فكيف لنا بالمغفرة، وليست إلا فى يديك؟ وكيف لنا بالرحمة وليست إلا عندك؟ يا حفيظ لا يُنسى، وقد لا يبلى، وحى لا يموت، بك عرفناك، وبك اهتدينا إليك ولولا أنت لم ندر ما أنت سبحانك وتعاليت»[1].

ما يؤخذ من هذا الدعاء

١ - أحب أوصاف العباد إلى اللّه تعالى العبودية لهذا وصف بها رسله، وهم الصفوة المختارة من البشر، فقال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ** ..(٤١) ﴾[ص] وقوله تعالى: ﴿ .. **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ** .. (١٧) ﴾[ص].

كذلك الشأن مع خاتم الأنبياء والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين محمدﷺ، فقد أخبر الله عنه بقوله: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** (١) ﴾[**الإسراء**].

٢ - ذكر لفظ العبودية فى القرآن دائماً قرين السمو الروحى والخلقى والعملى.

٣ - التخلية بصورها المتعددة مقدمة على التحلية واكتفاء العبد بها يشير إلى سمو خلقه وعمق عقيدته.

---

(١) العقد الفريد: ٢/ ٢٠٠.

٤ - عدم الاكتفاء باللازم عن الملزوم فى مواقف الشدة عن شيم العقلاء.

٥ - الاشتغال بالإيمان إقراراً وتصديقاً وإذعاناً مقدم على كل شيء.

٦ - نعيم الآخرة خير وأفضل من شهوات الدنيا الفانية.

الفصل الثالث

دعاء امرأة عمران

الدعاء الرابع : (دعاء امرأة عمران - أم مريم والدة عيسى عليه السلام) لها دعاءان :

أ - ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾[آل عمران] .

ب- ﴿ ... وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾[آل عمران] .

اتصال هذه الآيات بما قبلها

١ - قال محمد بن يزيد : «إذ» متعلق بمحذوف تقديره «اذكر وقت قولها» والمراد ما حل فى الوقت وهو قولها .

٢ - قال الزجاج : «إذ» متعلق بقوله «اصطفى» المذكور والتقدير «إن الله اصطفى آدم ونوحاً . . وامرأة عمران القائلة إنى نذرت لك ما فى بطنى .

٣ - قال أبو عبيدة «إذ» زائدة لغواً ، ولا موضع لها من الأعراب ، قال الزجاج لم يصنع أبو عبيدة فى هذا شيئاً ، لأنه لا يجوز إلغاء حرف من كتاب الله تعالى ، ولا يجوز حذف حرف من كتاب الله تعالى من غير ضرورة .

٤ - وقيل : «إذ» متعلق بقوله «سميع عليم» والتقدير «والله سميع عليم بكل مسموع ومعلوم ومنه قول امرأة عمران : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ .

وامرأة عمران هى حَنَّة «بالحاء المهملة والنون» بنت فاقود بن قبيل أم مريم ، فهى جدة عيسى عليه السلام ، خاطبت مولاها بلفظ الربوبية المشعرة بعظم تربية الله تعالى لها وكفالته لها ، وصدرت الجملة بأداة التأكيد المشعرة بأهمية الخطاب . . لقد نذرت

لله تعالى أن تهبه أعظم مأمول لدى أية امرأة فى الوجود ألا وهو حملها وقدمت الجار والمجرور لأنه المقصود الأسمى والغاية العظمى عندها . . وأفاد هذا التقديم القصر البلاغي فكأنها خاطبت الله تعالى قائلة له أن ما فى بطنى هو لك مقصور عليك يا الله، تحرسه وتكفله بعين عنايتك ورعايتك يا أكرم الأكرمين، وزيادة «منها» فى الإيضاح والبيان لما نذرته لله تعالى ذكرت أنه محرر من كل القيود أي عتيقاً خالصاً لله خادماً لبيته تعالى وهو بيت المقدس، والمراد هنا بالحرية التي هى ضد العبودية، وقيل المراد بالمحرر هنا الخالص للَّه سبحانه الذى لا يشوبه شيء من أمور الدنيا، ورجَّح هذا بأنه لا خلاف أن عمران وامرأته حران وهذا لدفع التوهم بأنهما عبدان. أي محرراً من كل قيد إلا قيد العبودية للَّه.

الدعاء الأول :

﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾[آل عمران]

التقبل هو اتخاذ الشيء على وجه الرضا أي تقبل منى نذرى الذى نذرته لك يارب وهو ما فى بطنى وهذا دليل صدق على إخلاص نيتها فى نذرها فهى إذا تقدم لله تعالى أعز ما لديها ترجوه رجاء حاراً أن يقع منه موقع القبول والرضا وهذا شأن المؤمنين المخلصين الأتقياء الأوفياء إذ هم على درجة كبيرة من التقوى وحسن الخلق والأدب، حيث لا يعتمدون فى كسب رضا مولاهم على أعمالهم حتى ولو كانت أفضل الأعمال وصادرة عن أخلص النيَّات فهى فى نظرهم غير سبب لكسب مرضاة الله ورحمته وغفرانه . . ثم ختمت دعاءها وقرنته بالثناء على الله المناسب لدعائها فقالت مؤكدة بـ «إن، وضمير الفصل، وأل الاستغراقية» ﴿ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

أي لا أُحدٌ أسمع منك لدعائى يا اللَّه ، ولا أعلم منك بذات نفسى ونيتى التى دفعتنى لهذا النذر، مما أجمل ثناؤها على الله تعالى، وما عظم ختم دعائها، وما أولاه بالقبول والرضا من جانب الله جل وعز.

الدعاء الثاني :

﴿ ... وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾[آل عمران] .

والمعنى : إنك أنت السميع لتضرعى ودعائى وندائى ، العليم بما فى ضميرى وقلبى ونيتى .

هذا الدعاء متصل بقولها لما وضعت ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى ﴾ فهى لم تكن تنوى فى دعائها أثناء نذرها إلا غلاماً لأنه أفضل الجنسين وأقوى على العمل وخدمة بيت الله والقيام على شئونه، ولذلك لما فوجئت بوضعها أنثى قالت مقالتها هذه تحسراً وأسفاً على أن الوليد ما جاء حسب نيتها وقصدها ، ولا ينبغى أن يفهم أنها تكره الإناث وإنما أرادت أن تقدم للَّه أفضل الجنسين عند جميع البشر وهو الذكر وهذا متفق عليه بين الخلق ولا منازع فيه. فهى إذ تأسف على هذا لا كراهية فى الإناث وإنما لعدم تحقيق رغبتها كاملة وهى وإن لم تصرح برغبتها فى الدعاء بالذكر إلا أنه فهم من طريقين .

الطريق الأول : هو ما جرى عليه العرف السائد بين بنى قومها وكان النذر جائزاً فى شريعتهم لكنه ينصرف إلى الذكور دون الإناث حيث أنه كان المتعارف بينهم فكأنها تحسرت وحزنت لما فاتها من ذلك الذى كانت ترجوه وتقدره ، وتحسرها هذا هو

الطريق الثاني : الذى عرفنا به أنها كانت تريد بما فى بطنها الذكر لا الأنثى. ثم أسلمت قيادها للَّه وخضعت له وذلت وأتت بكل أنواع التسليم والرضا بقضائه وقدره والثناء عليه وتنزيهه بأكمل عبارات التنزيه .

ثم قال الله تعالى : ﴿ .. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾[آل عمران] .

قرأ الجمهور بتاء التأنيث فيكون من كلام الله ورد على سبيل التعظيم لما وضعته والتفخيم لشأنه والتبجيل لها، حيث وقع منها التحسر والتحزن. وكأن الله يقول لها : لقد كنت ترغبين فى الذكر وتحسرت لوضع هذه الأنثى التى سيجعلها الله وابنها آية للعالمين وعبرة للمعتبرين ويخصها بما لم يخص به أحداً .

وقرأ ابن عباس بكسر التاء خطاب من الله تعالى لها أي أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب ولا تعلمين علم الله بما فيه من الأمور التى تتقاصر عنها الأفهام لما فيه من العجائب والآيات.

وقرأ أبو بكر وابن عامر : بضم التاء فيكون من جملة كلامها مفيداً لمعنى التسليم لله والخضوع له والتنزيه أن يخفى عليه شيء. وعلى هذه القراءة يأتى قولها ﴿ **وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ** ﴾ امتداداً لتحسرها وفوات أملها أي ليس الذكر الذى أردت أن يكون خادماً صالحاً للنذر كالأنثى التي لا تصلح لذلك، وهذا الأسلوب يفيد اعتذارها إلى ربها من وجود مريم على خلاف ما قصدت ورغبت وأمَّلت.

أما على قراءة الجمهور وابن عباس فتكون جملة ﴿ **وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ** ﴾ اعتراضية مبينة لما فى الجملة الأولى وهى ﴿ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ** ﴾ من تعظيم الموهوب ورفع شأنه وعلو منزلته . واللام فى الذكر والأنثى للعهد.

ولما فوجئت بوضعها أنثى صدر منها أمران اثنان وهما :

أ - تسمية المولود.

ب- وإعاذته من الشيطان ، ولكن حينما نذرت ما فى بطنها لم تطلب من اللَّه إلا القبول وما كنا نعرف هل كانت تسميه وتعيذه بالله من الشيطان الرجيم كما فعلت أم أنها تَكِل أمره إلى الله. أما وأنها فوجئت بمولودها أنثى فلابد لها أن تغير موقفها وتطلب من اللَّه بالإضافة إلى طلبها الأول ما يناسب هذه الأنثى فما هى إذاً أهم التغييرات التى لا بست مفاجأتها بمولودها الأنثى؟

أمران : الأول أنها أعلنت أنها سمتها «مريم» ليكون لعملها وقولها من اسمها أوفر نصيب لأن لفظ «مريم» معناه خادم الرب بلغتهم ، وكأنها بتسميتها بهذا الاسم تقول للَّه تعالى يا رب إن لم تكن مولودتى هذه الأنثى لا تصلح لخدمة بيتك، فهذا أمر لا يمنع أن تكون من العابدات الصالحات ولذلك سميتها مريم ليسهم اسمها فى صالح عملها وقولها، فهى تريد بهذه التسمية التقرّب إلى الله وهذا هو الأمر الثانى.

الدعاء الثاني :

﴿ ... وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾[آل عمران] .

هذا الدعاء معطوف على قولها ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ فهى تخاطب المولى جل علاه قائله له أنى أحصنها وذريتها بعدلك وقدرتك وإرادتك من الشيطان الرجيم المطرود من رحمتك .

سارت كتب التفاسير كلها على أن امرأة عمران طلبت من الله تعالى الإعاذة لنذرها الذى فوجئت به أنثى ولذرية هذه الأنثى وهو ولدها عيسى عليه السلام، وتفسيرهم هذا إنما يتلائُم مع الواقع الذى عايشته السيدة مريم وأنها أنجبت فعلاً ذكراً ولم تنجب سواه، غير أنه لا يتفق مع دعائها الأول وهو قولها : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي ﴾ فهى لا تعرف ما فى بطنها أذكر هو أم أنثى، ثم لا تعرف هذا الذى فى بطنها أيعيش أم لا، ثم هى لا تعرف لو عاش أينجب ذكراً أم أنثى ، لهذا نجد قول المفسرين فى قولهم أنها تقصد بقولها «ذريتها» عيسى عليه السلام طابق الواقع لا الدعاء ولعل هذا الدعاء من الإلهام الإلهى .

أخرج عبدالرزاق عن ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «**ما من مولود يولد إلا مسّه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسّه إياه إلا مريم وابنها**» ثم يقول أبو هريرة اقرءا إن شئتم ﴿ ... وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾. وفى رواية «**كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه حين تلده أمه إلا عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب**».

استعاذت من الشيطان الرجيم، لأن تسلطه أكثر وأبلغ على النساء منه على الرجال فهل استجاب الله دعائها؟ نعم لقد تقبل منها النذر الذى كان فى بطنها لكن على غير رغبتها، إذ هى كانت تريد أن يكون ذكراً فأراده الله أنثى واستجاب الله إعاذتها فى شـأن وليدها وذرته فقال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..﴿٣٧﴾ ﴾[آل عمران] .. ففى إخبارها بقبول دعائها يخبرها الله بجمل ثلاث :

الجملة الأولى : فتقبلها ربها قبولاً حسناً بالرغم من أن العرف جرى على أن النذر يكون فى الذكور فقد أعلن جل شأنه أن تقبلها وإن كانت أنثى على غير العرف الذى تواضع عليه القوم وقتئذ، ولكن ما المراد بقبول الله تعالى لها ؟ هل رضاه بمريم نذرا وان خولف فى ذلك النذر ما اصطلح عليه القوم؟ أم يراد بالتقبل التكفل والتربية والقيام بشأنها ؟ والأرجح عندى الرأيان فالله تعالى تقبلها وفاء بنذر مريم وبذلك وفت بنذرها وبهذا القبول الإلهى اعتبرت مريم موفية بنذرها ولا حنث عليها فى ذلك ولعل المراد بالقبول الحسن عدم الامتعاض بها لكونها أنثى أو أن الله تعالى سلك بها مسلك السعداء يدعم ذلك قوله تعالى :

الجملة الثانية : ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ والإنبات الحسن اما مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها فى جميع أحوالها، أو المقصود به أن الله تعالى سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، أو المراد بالإنبات الحسن سرعة النمو حيث حكى أنها كانت تنبت فى اليوم الواحد ما ينبت ويزيد المولود فى عام.

الجملة الثالثة : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ، قال أبو عبيدة : ضمن القيام بها، قرأ الكوفيون بالتشديد : أى جعله الله كافلاً لها وملتزماً بمصالحها، وفى معناه ما فى مصحف أبى (أكفلها) ، وقرأ الباقون بالتخفيف : أى ضمها زكريا إليه وضمن القيام بها على إسناد الكفالة لزكريا ، وروى عمرو بن موسى عن عبدالله ابن كثير وأبى عبدالله المزنى (وكفلها) بكسر الفاء - لكن الأخفش قال لم أسمع ذلك ، والله تعالى أعلى وأعلم.

لقد كان نتيجة هذه الرغبة الإيمانية وجزاء هذا الإيمان الذى عمرَّ قلب امرأة عمران وغمر وجدانها أن تقّبل الله الوليدة (مريم) بقبول حسن . . وخصّها بمميزات لم تكن لغيرها. فأعدها لاستقبال نفخة الروح القدس، وكلمة الله تعالى بمولد المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام ، على غير مثال من الخلق. . وأنبتها نباتاً حسناً فى حضانة الطهر والسمّو . . حضانة النبى زكريا والد يحيى عليهما السلام . . إذ توفى أبوها عمران ، وكانت مريم آنئذ صغيرة تحتاج إلى من يكفلها ويقوم على عنايتها ورعايتها، فقدّمتها أمها إلى رُعَاة الهيكل فتنازعوا : أيهم يكفل مريم. . ولما ألقوا القرعة على ذلك كان الكافل لها زكريا والد يحيى عليهما السلام.

(ما يؤخذ من دعائى امرأة آل عمران)

١ - النذر جائز بل ومرغوب فيه من الشرع .

٢ - جواز النذر بالبنين والبنات فى الديانات السابقة .

٣ - قبول النذر بظاهر اللفظ دون مراعاة النية أو العرف .

٤ - تخصيص النذر بخدمة بيت الله ومقدساته مشروع .

٥ - جواز النذر فى شريعة المصطفى بكل شىء حلال إلا النذر بالآدميين .

٦ - من الأدب والحياء بالنسبة لله تعالى أن يطلب التقى الصالح لعمله أو قوله القبول والرضا من الله .

٧ - العمل أو القول الصالح ما هو إلا سبب ظاهر فحسب لجعله محل الرضا والقبول من الله تعالى .

٨ - مزج الثناء فى الدعاء ويا حبذا لو كان هذا الثناء مناسباً لهذا الدعاء كما ذكر هنا .

٩ - اطلاق الروح وأراد به جبريل عليه السلام .

١٠- جواز تعليم الله تعالى بعض النساء بواسطة ملائكته كما أوحى لأم موسى .

١١- طلب الاستعاذة للوليد عند ولادته ولذريته الذين سيوجدون فى المستقبل البعيد أمر جائز ومستحب .

١٢- ثبت أن أهم ما يستعاذ منه هو الشيطان لجريانه من ابن آدم مجرى الدم .

١٣- أفضل ما يستعاذ به هو الرب الرحيم مالك الكون وما سواه .

١٤- من كرم الله تعالى أن يجيب دعاء الداعى ويزيد عليه وذلك من فضله ورحمته .

الفصل الرابع

دعاء حوارى عيسى عليه السلام

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[آل عمران] .

نقاط البحث فى هذا الدعاء ما يلى:

١ - صلة الآيتين بما قبلهما. ٢ - ما المراد بإحساس عيسى؟

٣ - ما المراد بالكف ؟

٤ - ما الذى قصده عيسى بقوله : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾؟ .

٥- من هم الحواريون، ولما سُمُّوا بذلك ؟ أنصارى إلى اللّه ؟ وما عملهم؟

٦ - ما جواب الحواريين الذين أجابوا به عيسى عليه السلام؟

٧ - ما المراد بالكتابة ؟ ٨ - ما المراد بالشاهدين؟

٩ - ثمار ونتائج هذا الدعاء؟

١ - بيان وجه الصلة :

فى ذلك أقوال ثلاثة :

١ - **قيل: هذا شروع فى بيان مآل وأحوال عيسى عليه السلام.**

٢ - قيل: يحتمل أن يكون ذلك كله من قبل الملائكة شرحاً لظرف من أحوال عيسى داخلاً فى قول الملائكة ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ الآية [آل عمران]

٣- قيل: يحتمل أن يكون قول الملائكة قد انتهى عند قوله تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. ﴿٤٩﴾ ﴾[آل عمران]. . ويكون هناك محذوف تقديره (فجاء

عيسى كما بشر الله تعالى رسولاً إلى بنى إسرائيل قائلاً : بأنى قد جئتكم بآية من ربكم؛ وعليه تكون الفاء فى (فلما أحس) مُفصحة عن مثل هذا المُقدّر .

٢ - ما المراد من إحساس عيسى عليه السلام؟

الأصل فى الإحساس هو الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، فهل إحساس عيسى من هذا النوع؟ مع العلم بأن الكفر مما لا يحس به . . ولهذا أقول: لعله استعير هنا استعارة تبعية للعلم بلا شبهة . . أو أنه مجاز مرسل عن ذلك من باب ذكر الملزوم وإرادة اللازم . . أو نقول بأن الإحساس على ظاهره والمراد إحساس اثار الكفر .

ولقد ذكر الإمام الشوكانى فى تفسيره آراء ثلاثة من العلماء فى هذا الشأن أولها: قال أبو عبيدة : أحس معنى عرف وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة ، والإحساس هو العلم بالشيء ، ومنه قوله تعالى ﴿ . . **هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ . .** ﴿٩٨﴾ ﴾[**مريم**] .

ثم قال والمراد بالإحساس هنا الإدراك القوى الجارى مجرى المشاهدة . .

ثانيهما : قال الفراء : أحس أي أدرك عيسى إرادة قتله التى هى كفر .

ثالثهما : قال الزجاج : أحس بمعنى علم ووجد . ثم قال الشوكانى : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى جريج فى قوله : ﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ** ﴾ قال: كفروا وأرادوا قتله، روى عن مجاهد مثل ذلك .

٣ - ما المراد بالكفر ؟

يحتمل أن يكون المراد من الكفر إرادة قتله وهى كُفُر حقاً - أو الاستهزاء به والسخرية والعناد إصرارهم على عدم الإيمان به وذلك كفر وبخاصة إذا وصل عزمهم القوى فى إلحاق الضرر به ولو أدى ذلك إلى قتله . . ولقد ثبت فعلاً أنه عليه السلام قد لقى الكثير من العنَت والشدة من اليهود قاتلهم الله أنى يؤفكون ومما يؤيد ذلك ما أخرجه إسحاق بن بشر وابن عساكر من طرق عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان اليهود يجتمعون على عيسى عليه السلام ويستهزئون به ويقولون : يا عيسى ما أكل فلان البارحة وما ادخر فى بيته لغد؟ فيخبرهم ويسخرون منه حتى طال ذال بهم،

وكان عيسى عليه السلام ليس له قرار ولا موضع يُعرَف به إنما هو سائح فى الأرض فمرَّ ذات يوم بامرأة قاعدة عند قبر وهى تبكى فسألها فقالت : ماتت ابنة لى لم يكن لى ولد غيرها فصلى عيسى ركعتين ثم نادى : يا فلانة قومى بإذن الرحمن فاخرجى فتحرك القبر . . ثم نادى الثانية فانصدع القبر ، ثم نادى الثالثة فخرجت وهى تنفض رأسها من التراب فقالت : يا أماه من حمَّلك على أن أذوق كرب الموت مرتين ؟ يا أماه اصبرى واحتسبى فلا حاجة لى فى الدنيا ، يا روح الله سل ربى أن يردنى إلى الآخرة وأن يهوّن على كرب الموت فدعا ربه فقبضها إليه فاستوت على الأرض فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً . .

ومن فى ﴿ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ لابتداء الغاية متعلق بأحس أي ابتداء الإحساس من جهتهم لا من جهة عيسى عليه السلام.

٤ - ما الذى قصده عيسى بقوله : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾؟

الذى يظهر جلياً من مقالته هذه أنه أراد المَنعَة والحماية من أذى قومه ممن يستطيع ذلك سواء من عامة المؤمنين به أو الخواص . . ولكن ما جاء فى سورة الصف يرجح أنه أراد صحابته الأقربين فقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾[الصف] . وبدليل قوله تعالى أيضاً فى آيتنا هذه: ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ .

ولكن هل «إلى» فى قوله «إلى الله» على ظاهرها أم بمعنى «مع» وإذا صح الثانى لم عدل عنه إلى الأول وبم تعلق الجار والمجرور؟ تعددت الآراء فى ذلك .

أ - فذهب بعض المفسرين إلى أن «إلى» على ظاهرها والجار المجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من الياء فى «أنصارى» لوقوعها مفعولاً به فى المعنى ويكون التقدير على هذا هو «من ينصرنى حال كونى ملتجئاً إلى الله أو ذاهباً إليه» . . أو الجار والمجرور متعلق بـ «أنصارى» متضمناً بعض الإضافة أي من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله فى نصرتي.

ب- وذهب البعض الآخر إلى أن «إلى» بمعنى «مع» وعليه يكون المعنى «من ينصرنى مع الله» . . ولئن اعترض الفراء والكشاف على هذا وهو اعتبار «إلى» بمعنى «مع» كما أفصح الألوسى أيضاً عن رأيه فى هذا المقام . . فقال الفراء / لا تكون «إلى» بمعنى «مع» إلا إذا كانت فى تعبير ضم فيه شيء نحو «الذود إلى الذود إبل» أي إذا ضممته إليه صار إبلاً . . ألا تراك قول قدم زيد ومعه مال ولا تقول وإليه مال وكذا نظائره . . وقال الكشاف : لا يصح أن يكون «إلى» بمعنى «مع» أي من ينصرنى مع الله لعدم مطابقة هذا لجوابهم وهو قولهم «نحن أنصار الله» ولهذا اعتبر الكشاف الإضافة فى «أنصارى» للملابسة أي من حزبى ومشاركى فى توجهى لنصرة الله تعالى ليطابق جوابهم الآتى وهو «نحن أنصار الله» .

ولكن الإمام الألوسى تعقب الكشاف فى قوله بعدم المطابقة قائلاً إن عدم المطابقة غير مسلّم به لأن نُصْرة الله فى الجواب ليست على ظاهرها بل لابد من تجوز أو إضمار فى نصرهم لله تعالى، ويضمر ما تحصل به من المطابقة . . ثم اتجه الألوسى للكشف عن رأيه فى هذا المقام فقال: والسالم عن هذا الحمل من التفاسير مع اشتماله على الأقل الإضمار أولى، ومن هنا قال: اختار البعض كون «إلى» بمعنى «اللام» واختار البعض الآخر كونها بمعنى «فى»، ثم قال وهذا يجعل الكلام أقل تكلفاً بالنسبة لجعلها بمعنى «مع» . . وبالرغم من هذا فقد ذهب سفيان الثورى وغيره إلى القول بأن إلى بمعنى «مع».

ثم أدلى ابن كثير فى تفسيره فى هذا المقام قائلاً قال مجاهد : أي من يتبعنى إلى الله وهو أقرب القولين . . ثم قال والظاهر أنه أراد من أنصارى فى الدعوة إلى الله، وذلك كما كان يفعل المصطفى ﷺ حيث كان يقول فى مواسم الحج قبل أن يهاجر «من رجل يؤوينى حتى أُبلغ كلام ربى فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى . . حتى وجد الأنصار فأيدوه . . وهكذا فعل عيسى عليه السلام، حيث انتدب له طائفة من بنى إسرائيل لمؤازرته ونصر دين ربه».

٥ - من هم الحواريون ولم سموا بذلك وما عملهم ؟

قال صاحب المنجد : الحوارى : هو القصار لتحويره أي تبييضه أو الناصح له

الحميم أو الناصر وقيل: ناصر الأنبياء، ومنه الحواريون وهم رسل السيد المسيح وقيل سموا كذلك لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم لأن معنى حور الثياب بيضه..

وذكر الشوكانى فى تفسيره آراء عدة فى معنى الحواريين منها ما يلى:

١ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال: الحواريون هم الذين تصلح لهم الخلافة.

٢ - وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: هم أصفياء الأنبياء، وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الضحاك مثله.

٣ - وأخرج عبدالرازق وابن أبى حاتم عن قتادة قال الحوارى: هو الوزير.

٤ - وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة قال الحوارى هو الناصر.

وذكر الألوسى فى تفسيره ما رواه المفسرون فى المراد من الحواريين ثم قال الحوارى هو الناصر كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير رضى الله عنه فقال عليه الصلاة والسلام: «**لكل نبى حوارى وحوارى الزبير**».. ولعل السبب فى تسميتهم بذلك أحد الأمور التى ذكرها سعيد ابن جبير وغيره.

فقد روى عن سعيد بن جبير أنه قال: «أنهم سموا بالحواريين لبياض ثيابهم»، وقد روى عن مقاتل وجماعة أن الحواريين سموا بذلك لأنهم كانوا قصارين يبيعون الثياب للناس، وروى أيضاً عن قتادة أنه قال: سموا بذلك لنقاء قلوبهم وطهارة أخلاقهم، ومادة الكلمة تحتمل كل هذه المعانى وملخصها النقاء والصفاء والطهر والإخلاص.

ومن العلماء من فسر الحوارى بالمجاهد غير أنه لا يجوز أن يكون المراد بالجهاد المعروف وهو جهاد العدو لأن عيسى عليه السلام لم يؤمر بالقتال وإن كان البعض ادعاه مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** (١٤) ﴾ [**الصف**] غير أن الآية ليست نصاً فى ذلك.

كما أنه لا يجوز أن يراد بالتأييد فى هذه الآية هو التأييد بالحجة وإعلان الكلمة، ويمكن حل هذا الإشكال إذا فسر الحوارى بالمجاهد بأنه يجاهد نفسه بتجويعها مرائر التكاليف.

ثم يتساءل المرء هل هؤلاء الحواريون كأهل الصفة فى عصر المصطفى قد يكونون كذلك غير أنه قد وردت عدة أقوال تفيد بعضها أنهم من أصحاب الحرف وبعضها يفيد غير ذلك.

فقد قيل: أنهم كانوا صيادين وكان منهم «يعقوب وشمعون ويوحنا» فالتقى بهم المسيح وظهر لهم منه بعض المعجزات فآمنوا به واتبعوه .. وقيل: أن أحد الملوك وبعض أقربائه لما استضافوه فوجدوه يأكل من قصعته دون أن تنقص فآمن به الملك وأقرباؤه واتبعوه وقيل الحواريون هم ١٢ رجلاً أو ٢٩ من سائر الناس آمنوا بعيسى واتبعوه وكانوا معْع فى تجواله فرذا ضرب لهم الأرض بيده خرج لكل منهم رغيفان وكذلك إذا عطشوا فهم كأهل الصُّفَّة فى الإسلام ثم نصحهم وحثَّهم على العمل فكانوا يغسلون الثياب بالكراء ويأكلون، وقيل: إن عيسى دفعته أمه إلى صباغ فغاب الصباغ يوماً وأمره أن يصبغ كل ثوب بلون خاص ولكن عيسى صبغ كل الصياب بحب[1] واحد وأخرج كل ثوب منها بلون خاص كما أمره معلمه فتعجب منه والحاضرون وآمنوا به وأتبعوه وهم الحواريون.

ونقل جمع عن القفال أنه يجوز أن يكون (١) بعضهم من الملوك (٢) وبعضهم من الصيادين (٣) وبعضهم من القصارين (٤) وبعضهم من الصباغين (٥) وبعضهم من سائر الناس .. وسموا جميعاً بالحواريين، لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام والمخلصين فى محبته وطاعته .. ثم قال القفال: أما اشتقاق هذا اللفظ فلم يتغير بتغيير ما سبق من خلاف فى حقيقتهم، لأنه قيل أنه مأخوذ من «حار» بمعنى «رجع»، ومنه قوله تعالى: «أنه ظن أنه لن يحور». وكأنهم سموا بذلك لرجوعهم إلى الله تعالى.

وقبل أن نذكر إجابتهم على عيسى عليه السلام يجدر بنا أن نرد على تساؤل مؤداه لماذا طلب عيسى عليه السلام من الحواريين أن ينصروه وهم لم يؤمروا بقتال؟

يمكن الرد على هذا التساؤل بأحد الوجوه الآتية :

أ - قال الحسن ومجاهد : طلب عيسى عليه السلام من قومه حمايته من اليهود لما علم بأنهم يريدون قتله، لأنه قد روى أن اليهود لما طلبوه ليقتلوه قال للحواريين، أيكم يحب أن يكون رفيقى فى الجنة على أن يلقى فيه شبهى فيقتل مكانى؟ فأجابه إلى ذلك بعضهم.

ب- وفى بعض الأناجيل أن اليهود لما أخذوا عيسى عليه السلام سل شمعون سيفه فقتل به عبداً كان فيهم لرجل من الأحبار عظيم، فرمى باذنه فقال له عيسى عليه السلام : حسبك ثم أدنى أذن العبد فردها إلى موضعها فصارت كما كانت.

جـ- وقيل يجوز أن يكون قد طلب النصرة للتمكين من إقامة الحجة ولتمييز الموافق من المخالف وذلك لا يستدعى الأمر بالجهاد كما أمر المصطفى ﷺ بالقتال.

ما الجواب الذى أجابه الحواريون على سؤال عيسى وهو : ﴿ **مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ** ﴾؟.

الجملة الأولى : ﴿ **نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ** ﴾ أعلنوا جميعاً أنهم أنصار الله وأنصار دينه فهم إذاً أنصار عيسى عليه السلام وهذا هو الرأى الأرجح . . وصدّروا جوابهم له بهذه الجملة إسراعاً فى سرعة إفادته بأمله المنشود وهو نصر رسالته التى أمره الله تعالى بها تبليغاً لقومه . . وبدأوها بما يفيد التأكيد والحصر وهو ضمير الجماعة، وكان اختيارهم لهذه الكلمات وتعبيرهم بها من أجل صور البلاغة والبيان مما يثلج بمثل هذه الأساليب صدرو المتعطشين لنصرة الحق . . وانظر كيف قالوا : ﴿ **نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ** ﴾ ولم يقولوا مثلاً : نحن أنصارك يا عيسى ، أو أنصار رسالتك أو أنصار دين الله بل أتوا بهاتين الكلمتين مع ملاحظة الإضافة ليفيد التركيب كل ما سلف بيانه بل أكثر.

---

(١) حب واحد : لون واحد.

الجملة الثانية : ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ**﴾ جاءت هذه الجملة دليلاً لدعواهم أنهم «أنصار الله» كما أنها جرت مجرى العلة لها وكأنهم قالوا: « نحن أنصار الله لأننا آمنا به وهذا الإيمان هو أيضاً دليل على دعوانا أننا أنصار الله».

الجملة الثالثة : ﴿**وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ هذه الجملة تفيد أن غايتهم من دنياهم هى السعادة الآخروية، فهم يطلبون من نبيهم أن يشهد لهم يوم القيامة أمام ربهم وأمام الخلق أنهم كانوا فى الدنيا منقادين لأوامره، وأنهم كانوا مقربين بأن دينهم الذى اختاروه واتبعوا عيسى فيه هو الإسلام الذى هو دين الأنبياء قبله فهذا منهم إقرار واعتراف ضمنى بنبوة من سبق عيسى عليه السلام من رسل الله وأنبيائه ، كما يدخل فيه أيضاً نصرتهم له دخولاً أو لياً ، وطلبهم الشهادة ليس بدعاً ، وإنما هو أسوة بما سيكون عليه حال الأمم ،حيث تشهد الرسل لأقوامهم.

ويتأتى سؤال هنا لماذا أتى بالنون مخففة هنا ومضعفة فى سورة المائدة فى قوله تعالى ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ** (١١١) ﴾[**المائدة**] .

لعل السبب فى ذلك أن آية المائدة كانت أول كلام الحواريين فقد ورد الأسلوب على الأصل وهو التأكيد وهذا بخلاف آية آل عمران التى سبق مكرقة لما جاء فى المائدة بالمعنى فناسب فيه التخفيف.

وقد يكون الحواريون قد طالبوا لأنفسهم الشهادة هذه من الله تعالى فيصبح الكلام مستمراً مع الله تعالى وهو لرسوله من باب أولى.

الجملة الرابعة : ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ**﴾ هم يخاطبون ربهم ويعلنون أمام ذاته المقدسَّة بشهادة نبيهم عيسى عليه السلام أنهم مُستمِّرون على إيمانهم بما أنزله الله تعالى عليه لأنه المرسل إليهم.

الجملة الخامسة : ﴿**وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ**﴾ أعلنوا أنهم متبعون لنبى اللَّه عيسى عليه السلام فى كل ما جاء به من عند الله تعالى ولذا أتوا بصيغة الماضى الدالة على التحقق. . أعلنوا ذلك مبالغة منهم فى إظهار انقيادهم وإيمانهم وطاعتهم لله

ولرسوله، ولعلهم أرادوا بهاتين الجملتين الرابعة والخامسة التمهيد لدعائهم الآتى فى الجملة السادسة لاستمطار سحائب الإجابة الإلهية.

الجملة السادسة : هى ﴿ **فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ لا عجب إذا قلنا بأن هذه الجملة هى التى يظهر فيها دعاؤهم جلياً أمام الجمل الخمس السابقة فهى كالتمهيد لها إذ فيها اعتراف كامل منهم بأنهم آمنوا باللَّه وبرسول اللَّه عيسى وبكل ما نزل عليه واتبعوه ونصروا دينه بل رجوا الله تعالى أن يشهد هو وروسوله على إقرارهم هذا فإذا ثبت ذلك منهم طلبوا من الله تعالى أن يكتبهم مع الشاهدين، أي آمنا بآياتك واتبعنا رسوله عيسى عليه السلام : فاكتبنا مع من شهد لك بالواحدانية ولرسولك بالصدق.

فما المراد من الكتابة ؟ ومن هم الشاهدون الذين رجوا الله أن يكونا فى سلكهم؟

المراد من الكتابة :

١ - صريح اللفظ دل على أنهم أرادوا أن تكتب اسماؤهم فى سجل الصالحين عن الأمم السابقة.

٢ - من الناس من جعل الكتابة كناية عن تثبيتهم على الإيمان فى الخاتمة.

٣ - وقد يراد من الكتابة أنهم أحبوا أن يكونوا ممن شهدوا للرسل ولرسولهم بالشهادة.

٤ - ولا مانع عندى أن يكون قصدهم من الكتابة كتابة مقالتهم هذه وهى ﴿ **فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ أي سجلها لنا يا رب لنكون من المشهود لهم بصدق إيماننا وإسلامنا، يرشح ذلك ويدعمه أن القرآن ذكر مقالتهم هذه وسجلها لهم بصدق إيماننا وإسلامنا، يرشح ذلك ويدعمه أن القرآن ذكر مقالتهم هذه وسجلها لهم والحال أنهم ما كان يخطر ببال أحدهم، ذلك فأصبحت لسان صدق لهم فى الآخرين إلى يوم القيامة ولم يكتف القرآن بذكر مقالتهم هذه فحسب، بل سجل كل جوابهم على سؤال عيسى لهم ﴿ **مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ** ﴾.

٥ - أو أرادوا بالكتابة أن يجعل الله ذلك لهم مُقَّدراً فى صحائف الأزل.

ما المراد بالشاهدين . . (آراء كثيرة منها ما يلى) :

١ - قال الزجاج : هم الشاهدون للأنبياء بالتصدق. ٢ - روى أبو صالح عن ابن عباس أنهم هم المؤمنون من الأمم السابقة. ٣ - قال مقاتل : هم الصادقون. ٤- وقيل: هم الأنبياء، لأن كل نبى شاهد لأُمتَّه وعليها. ٥ - روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن هؤلاء الشاهدين هم المصطفى وأمته، حيث تشهد أمة المصطفى للرسل جميعاً بالتبليغ ويشهد المصطفى للرسل بالصدق فى دعواهم الرسالة. . وأيد الإمام الشوكانى هذا القول بروايات ثلاثة مختلفة الأسانيد متفقة فى المعنى كلها متفاوتة تفاوتاً يسيراً فى اللفظ.

سند الروايــة الأولى : قال ابن حاتم : حدثنا أبو سعد الكشح حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما : أي مع أمة مُحَّمد ﷺ وهذا إسناد جيد.

سند الرواية الثانية : أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس أنهم مُحمَّد وأُمتّه ، وشهدوا له أنه قد بلغ وشهدوا للرسول أنهم قد بلّغوا.

سند الرواية الثالثة : أخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه قال «مع الشاهدين» مع أصحاب محمد ﷺ . . ولقد ذُكر رأيين بالإضافة إلى ما سبق قال عنهما الإمام الألوسى هذا فيه من لاتكلف ما فيه وهذان الرأيان هما ما يلى:(١) قيل: أرادوا أن يكونوا مع المستغرقين فى شهود جلال الله بحيث لا يبالون بما يصل إليهم من الآلام فيسهل عليهم الوفاء بما التزموا من نصرة رسول الله وهو عيسى عليه السلام . . (٢) وقيل: أرادوا أن يكتب الله ذكرهم فى زمرة من شهدة حضرته من الملائكة المقربين وذلك كقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) ﴾[المطففين].

وعلى كل حال فالمعنى العام لهذا المقام هو : اجعلنا فى عداد أولئك أو فى عداد أتباعهم، وعبروا عن فعل الله تعالى ذلك بهم بلفظ «فاكتبنا» لأن الكتاب ضبط وتقييد .

ما يمكن استنتاجه من دعاء الحواريين

١ - التجاوب السريع لنصرة دين الله لمن طلبها ، وابداء ذلك صراحة دون التواء .

٢ - جواز إطلاق المحس على المدرك لشدة التلازم بينهما وقوة ظهوره .

٣ - جواز الاستنجاب بالبشر عند الإحساس والشعور بالخطر وهذا لا ينافى التوكل .

٤ - جواز إطلاق الكفر وإرادة ملزومه حيث أرادوا قتل عيسى عليه السلام فكانت هذه الإرادة سبباً فى كفرهم .

٥ - من الحكمة إجابة المستغيث بما يسعفه أولاً ويطمئنه فى صورة الإجمال ثم التفصيل .

٦ - لا مانع من استشهاد الرجل بغيره على بعض أعماله الصالحة .

٧ - إذا اقترن الإيمان والإسلام فى عبارة واحدة انصرف كل منهما إلى معناه اللغوى .

٨ - تقديم الإقرارات المتعددة والثناء بين يدى الدعاء أفضل وأرجى للقبول .

٩ - إجابات الحواريين «على استنهاض عيسى عليه السلام هممهم لنصرته فى نشر دينه ورسالة ربه «جاءت فى أقوى أسلوب حيث بدأوا بإخباره بأنهم أنصاره وأعوانه لأنهم مؤمنون بالله راجين إعلانه تعالى لإسلامهم وإيمانهم بما أنزله على رسوله عيسى عليه السلام متبعين لكل ما جاء به وهذا كل تمهيداً لدعائهم ﴿ **فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ .

الفصل الخامس

دعاء الربيين

وقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِن مَن نَبيٍ قَاتَلَ مَعَهُ ربيُّونَ كَثيرٌ فَمَا وَهَنُوا لمَا أَصَابَهُمْ في سَبيلِ اللَه وما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحبُّ الصَّابرينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كانَ قَوْلَهُمْ إلاَّ أن قَالُوا رَبَّنَا اغْفرْ لنا ذُنُوبنَا وإسْرَافَنَا في أَمْرنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوم الْكَافرينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخرَة وَاللَّهُ يُحبُّ الْمُحْسنينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾[آل عمران] .

نقاط البحث فى هذه الآيات : (١) صلة الآيات بما قبلها . (٢) حقيقة (كأين» . (٣) المراد من النبى . (٤) القراءات الواردة فى «قاتل» . (٥) من هم الربيون وما معنى هذه الصفة وما القراءات فيها . (٦) صفات الربيين فى هذه الآيات . (٧) دعاؤهم . (٨) استجابة دعائهم .

١ - **صلة الآيات بما قبلها** : تتصل هذه الآيات بما قبلها عن طريق الاستئناف المسوق توبيخاً للمنهزمين، أيضاً حيث لم يستُنّوا بسنن الربانيين المجاهدين مع رسلهم السابقين على سيدنا محمد ﷺ مع العلم بأنهم أولى بذلك حيث كانوا خير أمة أخرجت للناس .

٢ - حقيقة «كأين» اختُلف فيها وها هى أهم الآراء .

(٢) ذهب ابن حيان وغيره إلى أنها بسيطة وضعت كذلك ابتداء والنون أصلية .

(٢) ولكن المشهور بين النحاة أنها مركبة من «أى» المنونة «وكاف التشبيه» واختُلف فى ذلك أي فى «أي» هذه المركبة :

أ - قال ابن جنى : هى مصدر «أوى يأوى» إذا اجتمع وانضم فالتقت الواو والياء وسبقت أحداهما بالسكون فقبلت وأدغمت مثل «طى وشى» وحدث فيها بعد التركيب معنى التكثير المفهوم من «كم» فهما بمعنى واحد .

ب- وقيل : هى التى فى قولهم «أي الرجال» أ هـ (ابن كثير) .

جـ- قال الخليل وسيبويه هي «أي» المنونة دخلت عليها «كاف التشبيه» وثبتت معها فصارت بعد التركيب بمعنى «كم» وصورت فى المصحف نوناً لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغير لفظها لتغير معناها ثم كثر استعمالها فتصرفت فيها العرف بالقلب والحذف فصار فيها أربع لغات قرئ بها وهى ما يلى :

اللغة الأولى : كائن مثل كاعن وبها قرأ ابن كثير ومثله قول الشاعر :

وكائن بالأباطح من صديق   تراه لو أصبت هو المصابا

اللغة الثانية : كأين مثل كعيِّن وبه قرأ الباقون وهو الأصل .

اللغة الثالثة : كأين مثل كعين مخففا .

اللغة الرابعة : كيئن بياء بعدها همزة مكسورة .

أما فى حالة الوقف ففيها رأيان وهما : (١) وقف أبو عمرو بغير نون فقال «كأى» لأنه تنوين (٢) وقف الباقون بالنون، وعلى كل فهى دالة على الكثرة . (٣) ما المراد النبى؟

صرح الطبرى قائلا : أن المراد من النبى فى هذه الآية هو الرسول والتنوين فيه للتعظيم، وزعم الأجهورى أنه للتكثير والجار والمجرور وقع تمييزا لـ «كأين» كما أن لـ«كم» تمييز .

٤ - القراءات الواردة فى (قاتل) ثلاث قراءات.

«قتل» : بالبناء للمجهول وهى قراءة نافع وابن كثير وابن عمرو ويعقوب وابن عباس واختارهم أبو حاتم . . وفيه وجهان : أحدهما أن يكون فى (قتل) ضمير يعود إلى النبى فتكون جملة «معه ربيِّون» حالية ٩كقولك «قتل الأمير معه الجيش» أي ومعه . ثانيهما أن يكون القتل واقعاً على «ربيون» فلا يكون فى «قتل» ضمير، والمعنى «قتل بعض أصحابه وهم ربيون» .

«قاتل» قرأ الكوفيون وابن عامر وهى قراءة ابن مسعود واختارها أبو عبيد وقال: إن اللّه إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلاً فيه . . وإدا حمد من قتل لم يدخل فيه من قاتل ولم يُقتل ، فقَاتل أعم وأمدح . . ويرجِّح هذه القراءة الأخرى، والوجه

الثانى من القراءة الأولى قول الحسن : ما قتل نبى فى حرب قط ، وكذا قال سعيد بن جبير .

«قتل» : قرئ بالتشديد قال ابن جنى وحينئذ فلا ضمير فى الفعل لما فى التضعيف من الدلالة على التكثير واعترض على هذه القراءة من وجهين :

الوجه الأول : أنه ينافى إسناده إلى الواحد . إلا أنه أجيب عليه بأنه لا يمتنع أن يكون فيه ضمير الأول لأنه فى معنى الجماعة .

الوجه الثانى : أنه خلاف الظاهر .

ومن هنا قيل : إن هذه القراءة تؤيد إسناد «قتل» للربيين ، ويؤيدها أيضاً ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جبير أنه كان يقول : ما سمعنا قط أن نبياً قُتل فى القتال ، وقول الحسن وجماعة «لم يُقْتل نبى فى الحرب قط» . . ثم من ادعى إسناد القتل إلى النبى فى الحرب جمل النصر الموعود به فى قوله تعالى ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا** .. ﴿٥١﴾﴾[**غافر**] على نصر الكلمة لا تتنافى الآيتان . أ . هـ (ابن كثير) .

٥ - من هم الربِّيون ، وما معنى هذه الصفة وما القراءات فيها؟

قرأ الجمهور بكسر الراء ، وقرأ ابن عباس بفتحها ، وقرأ علىّ بضمها .

الرِّبىُّ بكسر الراء وضمها منسوب إلى الربة وهى الجماعة . قال الضحاك : الربة الواحدة ألف . . وتعددت الآراء فى حقيقة الربيين نذكر منها أرجحها :

١ - قال ابن عباس رضى الله عنهما هذه الكلمة تعنى الجموع الكثيرة ، يدعم ذلك استشهاد ابن الأنبارى بقول حسان حينما سأله نافع بن الأزرق عن معنى الربيين فقال : « وإذا معشر تجافوا عن القصد أملنا عليهم ربيا» .

وعلى ذلك فهو منسوب إلى ربه بكسر الراء «وكون الضم فيها لغة غير متحقق» وهى الجماعة للمبالغة .

٢ - أخرج سعيد بن منصور عن الحسن «أنهم العلماء والفقهاء» ورواه ابن جبير عن ابن عباس أيضاً ، وعليه يكون منسوباً إلى «الرب» كربانى على خلاف القياس كقراءة الضم والموافق له الفتح وبه قرئ .

٣ - قال ابن زيد : الربيون هم الأتباع ، والربانيون هم الولاة . . (الألوسى).

٤ - قال الزجاج : الربيون بالضم الجماعات.

٥ - قال الخليل : الربى الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء وهم الربانيون، نُسبُوا إلى التأله والعبادة ومعرفة الربوبية.

٦ - قال عبدالرزاق بن معمر عن الحسن هم علماء كثير، وعنه أيضاً صبر أي أبرار أتقياء.

٧ - حكى ابن جرير عن بعض نُحَاة البصرة : أنهم هم الذين يعبدون الرب عز وجل ، ورد هذا بأنه لو كان الأمر كذلك لقال بفتح الراء.

وأرجح الآراء ما ذهب إليه ابن عباس رضى الله عنهما من أن الربيين هم الجماعات الكثيرة إذ قال بذلك جماعة من السلف وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدى والربيع وعطاء الخرسانى.

٦ - صفات هؤلاء الربيين فى هذه الآيات :

لقد وصف القرآن الكريم الربيين فى هذه الآيات بصفات ثلاث هى ما يلى :

الصفة الأولى : يحكيها قوله تعالى ﴿**فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** . . ﴿١٤٦﴾﴾[**آل عمران**] . **هذه الجملة معطوفة على «قاتل» وتعددت الآراء فى** تعريف الوهن.

١ - ففسره قتادة وابن أبى مالك هنا بالعجز، وإن كان أصل الوهن الضعف.

٢- وفسره الزجاج بالجبن.

٣- رفسره الحسن بكسر الهاء وضمها بالضعف، قال أبو يزيد هما لغتان: وهن الشئ يهن وهنا ضعف، والمعنى ما وهنوا لقتل نبيهم ولا لقتل بعضهم.

الصفة الثانية: قوله تعالي: ﴿ . . **وَمَا ضَعُفُوا** . . ﴾ [آل عمران] . .

(١) قال الزجاج ما فتروا عن الجهاد.

(٢) وقال قتادة والربيع بن أنس وما ضعفوا بقتل نبيهم أي ما ضعفوا بعد قتل نبيهم أو قتل بعضهم عند قتل عدوهم ومحاربته .

(٣) وقيل : ما عراهم ضعف فى الدين بأن تغير اعتقادهم لعدم النصر .

الصفة الثالثة : قوله تعالى ﴿ **وما استكانوا** ﴾ . . والاستكانة هى الذلة والخضوع أي ما زالوا لما أصابهم فى الجهاد .

(١) قال ابن زيد : وما ذلوا لعدوهم .

(٢) قال ابن عباس : وما تخشعوا .

(٣) قال محمد بن إسحاق والسدى وقتادة : أي ما أصابهم ذلك حينما قتل نبيهم .

(٤) قيل : ما ارتدوا عن نصرة نبيهم ودينهم .

هذه الصفات الثلاث التى امتدح الله بها أتباع بعض الرسل السابقين المحاربين لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه ورسله . . إنما ساقها الله تعالى ليشعر المسلمين أتباع خير الرسل أنه ما كان ينبغى أن يقع منهم ما وقع فى غزوة أحد من الهزيمة والذل والضعف والاستكانة والأراجيف التى أنبثت فى صفوفهم بفعل الشيطان .

٧ - دعاء الرِّبيين :

بعد هذا الوصف الإلهى الجميل وذلكم الثناء العظيم الذى ذيله بقوله تعالى :

﴿ . . **واللهَ يحبُ الصَابرين** ﴿١٤٦﴾ ﴾[**ال عمران**] . لهؤلاء الربيين، بين تعالى أنهم زيادة على ما اتصفوا به فى مواطن البأساء والكروب تضرعوا إليه تعالى وسألوه حاجتهم التى أفصح عنها القرآن فى أربع جمل هى ما يلى :

الجملة الأولى: هى قوله تعالى ﴿ . . **ربَّنَا اغْفرْ لَنَا ذُنُوبَنَا** . . ﴿١٤٧﴾ ﴾[**آل عمران**] . فصدَّروا دعاءهم بلفظ الربوبية المنبئ عن كامل تربيته تعالى لهم استدراراً لعطفه واستجابة لدعائهم . وعن عظيم أدبهم أنهم ما طلبوا المغفرة العامة حتى لا يكونوا بطلبها قد تعدوا الحدود وظلموا العباد إذ الذنوب صغائر وكبائر وكثيراً ما تعلقت

الكبائر بحقوق العباد . . كما يفهم من طلبهم هذا أنهم ما ارتكبوا كبيرة إذ العقل يستعبد حصولها منهم . . بل من أمثالهم وبخاصة بعد أن وصفهم الله تعالى بما سلف من عدم الوهن والضعف والاستكانة عند ملاقاتهم لأعداء الله حتى امتدحهم الله تعالى بالصبر الذى ذكر معيَّته تعالى مع المتصفين به فى آيات كثيرة من القرآن الكريم.

الجملة الثانية : وهى قوله تعالى ﴿ **وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** ﴾[**آل عمران**] .

حقيقة الإسراف هى كل ما أمر فيه مجاوزة للحد، وقيل: المراد من الإسراف هنا هو التجاوز فى فعل ما يجب والذنوب عام فيه وفى التقصير . . وقال الضحاك: المراد من إسرافهم وتجاوزهم الحد فى ارتكاب الكبائر، فهذه الجملة من عطف الخاص على العام.

ولكن هذا الرأى ليس بصواب: لأن من وصفهم الله تعالى بالصفات سالفة الذكر يستبعد وقوع الكبائر منهم. وقيل: الإسراف هو ما قابل التقصير وكلاهما مذموم وهذا أرجح الأقوال، ونلاحظ أنهم لما طلبوا المغفرة للذنوب والإسراف فى الأمر أضافوهما ونسبوهما لأنفسهم مع أن الظاهر أنهم بَراء من التفريط فى جنب الله تعالى . . ولعلهم ذكروا ذلك هضماً لأنفسهم واستقصار الهمم . . على أنه لا يستبعد أن يراد بذلك الحقيقة ويكون ذلك من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين» .

ولعلهم قدموا طلب المغفرة على الآتى وهو الأهم فى هذا المقام (وهو تثبيت الأقدام والنصر على الكفار) ليحوز طلبهم القبول لأن الدعاء المقرون بالخضوع والذِّلة والإنكسار الصادر عن ذكراة النفس وطهارة القلب أقرب إلى الاستجابة .

الجملة الثالثة : وهى قوله تعالى ﴿ . . **وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا** . . ﴿١٤٧﴾ ﴾[**آل عمران**] . أي ثبت أقدامنا فى مواطن النضال وذلك بتقوية قلوبنا وإمدادنا بالعون الذى نكفل به النصر على أعدائنا .

ومن المفسرين من ذهب إلى القول بأن المعنى ثبتنا على دينك الحق فيكون تقديم طلب المغفرة من باب تقدمة التحلية على التخلية وقيل: إنهم طلبوا المغفرة أولاً ليستحسنوا طلب النصر على الكافرين.

الجملة الرابعة : وهى ﴿ .. **وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴿١٤٧﴾ ﴾[**آل عمران**] .
أي الذين كفروا بذاتك وصفاتك وأفعالك وكتبك ورسلك واليوم الآخر.

٨ - هل استجاب الله دعاءهم ؟؟

نعم : فقد استجاب اللَّه تعالى دعائهم على وجه السرعة بدليل العطف بالفاء التى أفادت أمرين (أ) سرعة الإجابة (ب) أن ما بعدها مُسبَّب عن قولهم . . فقد قال الله تعالى ﴿ **فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴿١٤٨﴾ ﴾[**آل عمران**] .

وتعددت الآراء فى المراد من ثوابى الدنيا والآخرة.

أ - ثواب الدنيا : قال قتادة : المراد به (الفتح والظهور والتمكن والنصر على عدوهم» قال ابن جريح : المراد به «النصر والغنيمة» ولكن اعترض عليه بأن الغنائم لم تحل لأحد قبل الإسلام بل كانت الأنبياء إذا غنموا مالاً جاءت نار من السماء فأخذته فكيف تكون الغنيمة ثواباً دنيوياً ولم يصل منها للغانمين شيء؟ ولقد دفع هذا الاعتراض بأن المال الذى تأخذه النار غير الحيوان الذى يبقى للغانمين دون الأنبياء ينتفعون به فكان ذلك هو الثواب الدنيوى.

وسواء أريد بالنصر والغنيمة أو الفتح والظهور أم هما معا، ثواب الدنيا يأتى سؤال هنا: ما وجه الحكمة من تسمية ذلك بالثواب ؟ (أ) قيل بأن تسمية ذلك ثواباً مجاز لأنه يحاكيه. (ب) وقيل: لأن فى ذكره بهذا اللفظ إجلال لهم وتعظيم. (جـ) وقيل لأنه مترتب على طاعتهم.

ب- ﴿ **وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴿١٤٨﴾ ﴾[**آل عمران**] ..
(أ) قال ابن جريح هو رضوان الله تعالى ورحمته. (ب) قال قتادة: هو الجنة وتخصيص ثواب الآخرة (بالحسن) للإيذان بفضله ومزيته، وأنه هو المعتد به عند الله

ولا يعترض على ذلك بتقدم «ثواب الدنيا» فى الآية لأنه لمراعاة الترتيب المقوعى أو لأنه أنسب بما قبله من الدعاء بالنصر على الكافرين.

والتذييل بقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴿١٤٨﴾ ﴾[**آل عمران**].. مُقررٌ لما قبله، فإن محبة الله تعالى للعبد مبدأ كل خير وسعادة.

أهم ما يؤخذ من هذا الدعاء

١ - الاعتماد الكامل على الله تعالى (حتى لو توفرت على صورة التأكيد أسباب النصر) من علامات قوة الإيمان.

٢ - استحسان هضم النفس والشعور بذل العبودية حتى فى المواطن التى يشعر فيها الإنسان بالعظمة والقوة.

٣ - تقديم طلب المغفرة والعفو بين يدى المطلوب من الدعاء.

٤ - قوة الجند وكثرتها وحداثة السلاح وشدة فتكه لا تُغنى أبداً عن ضرورة الإلتجاء إلى الله تعالى والاعتماد الكامل عليه.

٥ - طلب التثبيت على الإيمان فى مواطن البأس أمر مشروع ومطلوب.

٦ - من أهم أسباب النصر التحلى بالصبر، إذ هو واجب على كل مؤمن يخوض الحرب ضد العدو.

٧ - الجلد والتحمل عند فقد الأحبة والخلان فى ساحة القتال أمر محمود مشكور وينبغى الحرص عليه.

٨ - التذرع بالنخوة والرجولة والكرامة والقوة والشجاعة عند كثرة الشهداء مما تدعو إليه تعاليم الإسلام.

٩ - طلب النصر على الكفار من أهم الأمانى التى ينشدها كل مسلم غيور على دين الله.

الفصل السادس

دعاء أولى الألباب

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

تشتمل هذه الآيات الخمس على النقاط التالية :

(١) سبب نزولها. (٢) من هم أولوا الألباب؟ (٣) بما وصفهم الله تعالى؟ (٤)هل استجاب الله دعائهم؟ (٥) مكانة هذه الآيات العشر التى فى آخر سورة آل عمران فى الإسلام. (٦) ما يؤخذ من هذه الآيات.

١ - سبب النزول :

روى ابن كثير فى تفسيره عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا: بما جاءكم موسى؟ قالوا: عصاه ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى ؟ قالوا: كان يُبرئُ الأكمة والأبرص ويحيى الموتى، فأتوا النبى ﷺ فقالوا: ادع الله يجعل لنا الصفا ذهباً فدعا ربه فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾، ثم قال ابن كثير وهذا مشكل ، فإن هذه الآية مدنية ، وسؤالهم أن يكون الصفا ذهباً كان بمكة والله أعلم . وقد جرى معظم المفسرين على هذه الرواية بالرغم من اعتراض ابن كثير عليها وكلها مروية عن ابن عباس. فقد روى الخازن ما نصه قال: قال ابن عباس : أن

أهل مكة سألوا النبى ﷺ أن يأتيهم بآية فنزلت هذه الآية . . والمعنى تفكَّروا واعتبروا أيها الناس فيما خلقته وأنشأته من السماوات والأرض لمعاشكم وأرزاقكم وفيما يعقبت من ذلك بين الليل والنهار، واختلافهما فى الطول والقصر فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم لكى تتصرفوا فيهما لمعاشكم تطلبون أرزاقكم وتسكنون فى الليل لراحة أجسادكم فاعتبروا وتفكروا يا أولى الألباب.

٢ - من هم أولوا الألباب ؟

هم الذين وصفهم الله تعالى بتلكم الصفات الإحدى عشرة الآتى بيانها والتى كشفت اللثام عن حقيقتهم وأبانت أنهم أصحاب العقول الصافية الزكية التامة النيِّرة التى تُدْرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، الفاتحون عيونهم وبصائرهم للنظر والاستدلال لا ينظرون.

نظر البهائم غافلين عما فى الكون من عجائب مخلوقات الله تعالى وغرائب مبتدعاته وليسوا من قال الله تعالى فيهم ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴿١٠٥﴾ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴿١٠٦﴾ ﴾[**يوسف**].

٣ - بم وصفهم الله تعالى ؟

وصفهم الله جل شأنه بإحدى عشرة صفة هى ما يلى موجزة (١) الذكر فى جميع أحوالهم. (٢) والتفكر فى خلق السماوات والأرض حالة كونهم معتقدين أن هذا الخلق لم يكن عبثاً ولا باطلاً، وهذا التفكُّر دفعهم إلى طلب الوقاية من النار. (٣) واعتقادهم أن من أدخله الله النار فقد أخزاه لله (٤) وإيمانهم بأن اللَّه لم يجعل للظالمين نصيراً. (٥) وقبولهم لدعوة رسل الله فى الإيمان بالله عند النداء. (٦) وطلبهم ستر الذنوب. (٧) وتكفير السيئات. (٨) وأن يتوفاهم الله مع الأبرار الذى بروا بما عاهدوا الله عليه. (٩) وشوقهم فى منحهم الله ما وعدهم به على ألسنة رُسُله. (١٠) وأن يقِّيهم خزى يوم القيامة. (١١) وثناؤهم على اللَّه بأنه لا يُخفال الميعاد. . هذه الجمل الإحدى عشر هى ما وصفهم الله تعالى بها، وكما يرى القارئ

في هذه الجمل الخبر والإنشاء والدعاء والثناء والذكر والتفكر والغفران والتفكير، لهذا يجدر بنا الوقوف عند كل صفة من هذه الصفات لاستلهام ما حوته من معان وما تضمنته من غايات وما هدفت إليه من فائدة.

(١) الصفة الأولى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ .. ﴾ :

امتدحهم الله تعالى بأنهم دائموا الذكر على أي حال من أحوالهم لكن هل يراد من الذكر عمومه أو خصوصه ؟ قيل: بكل ، فمعظم كتب التفسير ذهبوا إلى الخصوص قائلين بأن المراد من الذكر فى الآية «الصلاة» واستدلوا بما يلى :

أ - قال على بن أبى طالب وابن مسعود وابن عباس وقتادة هذا فى الصلاة يعنى الذين يُصَلُّون قياماً، فإن عجزوا فقعودا فإن عجزوا فعلى جنوبهم ، والمعنى أنهم لا يتركون الصلاة فى حال من الأحوال بل يُصَلُّون فى كلٍّ حال.

ب- قال عمران بن حصين كانت بى بواسير فسأل النبى ﷺ عن الصلاة فقال:« **صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب**» ثبت فى الصحيحين وأخرجه الترمذى وقال فيه سألته عن صلاة المريض وذكر نحوه أما القائلون بعموم الذكر فى الآية فأهم أدلتهم ما يلى :

أ - عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يذكر الله عز وجل فى كلٍّ أحيانه.

ب- عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :« **من قعد مقعداً لم يذكر اللَّه فيه كانت عليه من الله ترة، ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة، وما مشى أحد مشى لا يذكر الله فيه إلا كانت عليه من الله ترة**[١]»[أخرجه أبو داود] . والترة هى النقص، وقيل: معناها هنا التبعة والأرجح القول بالعموم لدخول الصلاة ولأن الإنسان قَلَّ أن يخلو من هذه الحالات الثلاث التى تعتبر بحق مرشحة لمن ذهبوا إلى العموم. . ولقد اختلف الإمام الشافعى وأبو حنيفة فيمن صلى مضجعاً.

---

(١) ترة : (التُّرهات) الطرُق الصغار غير الجادة تتشعب عنها الواحدة (تُرَّهةُ) فارسى معرَب ثم استعير فى الباطل.

(أ) فقال الإمام الشافعى إذا صلى المريض مضطجعاً وجب عليه أن يصلى على جنب ويومى برأسه إيماءاً وحجته فى ذلك ظاهر الآية وقوله ﷺ لعمران بن حصين فإن لم تستطع فعلى «جنب» فنص على الجنب دون غيره.

(ب) وقال أبو حنيفة : بل يصلى مستلقياً على ظهره فإن وجد خفّة قعد.

٢ - الصفة الثانية ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الآية.

وأصل الفكر إعمال الخاطر فى الشىء وتردد القلب فيه ، والفكر هو قوة متطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل، ولا يمكن التفكر إلا فيما له صورة فى القلب، ولهذا قيل تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى اللّه، إذ اللّه مُنزّه أن يوصف بصورة، فلذلك أخبر جل شأنه من عباده الصالحين بأنهم يتفكرون فى خلق السماوات والأرض وما أبدع الله فيهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته، ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى، ويعلموا أن لهما خالقاً قادراً مدبراً حكيماً لأن عظم اثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها كما قيل : وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد.

وقيل : إن الفكر مقلوب عن الفرك ، لأن الفكر مستعمل فى المعانى وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للحصول على حقيقتها . . وقيل: إن الفكرة تُذْهب الغفلة وتُحْدث للقلبة الخشية ، كما يحدث الماء للزروع النماء، وما جليت يمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة . أ. هـ[1].

ولقد أورد ابن كثير فى هذا المقام آراء الصحابة والتابعين والعلماء والحكماء فى الفكرة وثمرتها كلاماً حسناً جداً أحببنا أن ننقله بنصه إتماماً للفائدة ولبيان عظمة هذه الصفة التى وصف اللّه بها عبادة أولى الألباب.

فقال: (١) قال الشيخ أبو سليمان الدارانى: إنى لأخرج من منزلى فما وقع بصرى على شىء إلا رأيت للّه فيه نعمة ، ولى فيه عبرة[2].

---

(١) تفسير الخازن.

(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب التوكل والاعتبار . .

(٣) وقال سفيان بن عينية : الفكر نور يدخل قلبك وربما تمثل بهذا البيت :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شـىء لـه عبرة

ولا ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ يقولون :

إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكُّر .

(٣) وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة .

(٤) وقال ابن أبى الدنيا أنشدنى الحسين بن عبدالرحمن :

١ - نزهـة المؤمن الفكر لـذة المؤمـن العـبر

٢ - نحمـد الله وحـده نحـن كل على خطـر

٣ - رب لا وعمـره قـد نقض وما شـعر

٤ - رب عيش قد كان فو ق المنى مونـق الزهـر

٥ - فى خرير من العيو ن وظـل من الشجـر

٦ - وسـرور من النبـا ت وطيـب عن الثمـر

٧ - غيرتـه وأهلـه سرعة الدهـر بالغيـر

٨ - نحمد الله وحـده أن فى ذا المعتـبر

٩ - إن فى ذا لعـبرة للبيـت إن اعتـبر

ثم أوضح الله تعالى مآل تفكيرهم وهو نطقهم بجمل ثلاث هى قوله جل علاه ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً ﴾ الآية ، فالجملة الأولى وهى﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً ﴾ فهى فى محل النصب حالاً أي يتفكرون قائلين ذلك أي ما خلقت هذا الخلق باطلاً بغير حكمة سبحانك بل جعلته أدلة لهم على معرفتك حيث سكناهم ومعاشهم ونهايتهم ، وهذه الجملة أفادت ثنائهم الجميل على الله تعالى خصوصاً وقد صدروها

بلفظ الربوبية . . فهم بهذا ينزّهون إرادة الله أن تتعلق بلهو ، كما ينزهون قدرته أن تخلق خلقاً عبثاً فلا تتعلق صفاته تعالى إلا بالأفعال والأقوال المشتملة على بالغ الحكمة وعظيم النفع . . وكأن هذه الجملة تنطق قائلة خلقت يا رب ذلك الخلق لتجزى الذين أساءوا بما عملوا وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى . . أما الجملة الثانية فهى «سبحانك» وهى جملة اعتراضية تنزيهية أفادت بالإضافة إلى ذلك تأكيد معنى الجملة السابقة عليها، أي نسبحك تسبيحاً وننزهك تنزيهاً عنْ أن تخلق شيئاً عبثاً لغير حكمة، بل خلقته دليلاً على وحدانيتك وكمال قدرتك.

والجملة الثالثة : هى ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ يشير إلى حال أولى الألباب هؤلاء وهم يجأرون بالدعاء قائلين يا من خلقت الخلق بالحق والعدل، ويا من تنزهت عن العبث والعيب والنقائص قنا عذاب النار بحولك وقوتك ، وقيِّضنا لأعمال ترضى بها عنا، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم وتجبرنا به من عذابك الأليم.

(٣) وقال الفضيل . قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

(٤) وعن الحسن البصرى أنه قال: تَفكُّر ساعة خيرٌ من قيام ليلة.

(٥) وعن عيسى عليه السلام أنه قال: طوبى لمن كان قيله تذكراً ، وصمته تفكراً، ونظره عبرا.

وقال: يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيثما كنت وكن فى الدنيا ضيفا، واتخذ المساجد بيتاً، وعلم عينك البكاء، وجسدك الصبر وقلبك الفكر، ولا تهتم برزق غد.

(٦) قال عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه : الكلام بذكر الله عز وجل حسن، والفكرة فى نِعَمِ اللّه أفضل العبادة . . وروى أنه بكى يوماً بين أصحابه فسُئل عن ذلك. فقال: فكَّرت فى الدنيا ولذَّاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضى حتى تكدِّرها مراراتها ، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبره، أن فيها مواعظ لمن ادَّكر.

(٧) قال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهمُ للفكرة، وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة.

(٨) قال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم ، ولا فهم امرؤ قط إلا علم، ولا علم امرؤ قط إلا عمل.

(٩) وقال معيث الأسود : زوروا القبور كل يوم تفكركم ، وشاهدوا الموقف بقلوبكم ، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها. . وكان يبكى عند ذلك حتى يُرْفع صريعاً بين أصحابه وقد ذهب عقله.

(١٠) وقال عبدالله بن المبارك : مرَّ رجل براهب عند مقبرة ومزبلة فناداه فقال: يا راهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيها معتبر ، كنز الرجال وكنز الأموال.

(١١) وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما : أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتى الخرابة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : «كل شىء هالك إلا وجهه».

(١٢) وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: ركعتان مقتصدتان فى تفكرٍ خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ.

(١٣) وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم كُلْ فى ثلث بطنك، واشرب فى ثلثه، ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة.

(١٤) وقال بِشْر بن الحارث الحافى : لو تفكَّر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه.

(١٥) وقال الحسن بن معامر بن عبد قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين، ولعل المقصود من هاتين الجملتين تعليم العباد كيفية الدعاء فمن أراد أن يدعو فليقدم الثناء على الله أولاً بدليل «سبحانك» ثم يأتى بالدعاء بدليل «فقنا عذاب النار».

(٣) **الصفة الثالثة : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾[آل عمران] .**

هذه الجملة منهم ثناء أيضاً على اللَّه تعالى وإقرار واعتراف بأن من أخزاه اللَّه وفضحه لن يجد من دونه مكرماً ولا ساتراً والخزى فى الحقيقة ضرب من الاستخفاف، أو هو انكسار يلحق الإنسان وهو المسمى بالحياء المفرط . . ولكن ما المراد فى هذه الآية؟ قد تكون الإهانة والإذلال أو الفضيحة أو الإهلاك أو المبالغة فى الإيذاء . . وهذا الثناء الذى تضمنته هذه الجملة يشير إلى رغبتهم الصادقة أن يجنبهم الله تعالى دخول النار حتى لا يكونوا من المخزيين فضيحة وإذلالاً . . ولكن ما المراد بدخول النار التأبيد أم العقاب؛ فإن قلنا بالأول كان الخزى خاصاً بالكفار وإن قلنا بالثانى كان الأولى به ومن أجل هذا دب النزاع بين المعتزلة وأهل السنة بسبب فهم هذه الجملة القرآنية .

١ - فاستدل المعتزلة بهذه الآية على أن صاحب الكبيرة مخلّد فى النار لأن الله تعالى أخبر فى سورة التحريم بأنه لا يخزى النبى والمؤمن به فقال تعالى : ﴿ . . **يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** . . ﴿٨﴾ ﴾[**التحريم**] . . فوجب أن كل من يدخل النار لا يكون مؤمناً لهذه الآية :

لكن الخازن تعقب المعتزلة فى فهمهم لهذه الآية بذكره أربعة وجوه أو ردود على ما ذهب إليه المعتزلة وهى :

أ - روى عن أنس فى تفسير قوله تعالى ﴿ **إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ** ﴾ قال من يخلده وروى نحوه عن سعيد بن المسيب . . هذا الجواب إنما يصحّ على مذهب أهل السُّنة القائلين بعدم خلود الموحدين فى النار ولو كانوا من أصحاب الكبائر، ولا يصح عند المعتزلة حسب عقيدتهم القائلة بأن أصحاب الكبائر مخلدون فى النار وإن كانوا موحدين .

ب- ان المقصود من الإخزاء هو ما كان حالة دخوله النار فحسب، والمعنى على هذا فقد أخزيته بدخوله فيها وتعذيبه بها، يدل على صحة هذا المعنى ما روى عن

عمرو بن دينار قال: قدم علينا جابر بن عبدالله فى عُمْرة فانتهيت إليه أنا وعطاء فسألته عن هذه الآية ﴿ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ فقال: وما أخزاه حين أحرقه بالنار وإن دون ذا لخزياً ، وهذا الوجه هو اختيار ابن جرير الطبرى لأن من أُدخل النار فقد أُخزى بدخوله إياها وإن خرج منها وذلك الخزى هو هتك المخزى وفضيحته . . غير أن الأنبارى يعترض على هذا الوجه بقوله إن حمل الآية على العموم أولى من نقلها إلى الخصوص إذ لا دليل عليه .

جـ- قال أهل المعانى : الخزى يحتمل عدة معان منها :

الإهلاك والإهانة والإبعاد وهذا للكفار . . ومنها الإخجال أي الحياء وهذا للموحدين حيث يستحى المؤمن من المؤمنين حين يدخل النار إلى أن يخرج منها لأنه يقال خزى خزاية إذا استحى وإذا عمل عملاً يستحى منه ويخجل . . وخلاصة هذا الوجه أن لفظ الإخزاء مشترك بين الإهلاك والتخجيل . . ولقد اعتُرض على هذا الوجه أيضاً بأن اللفظ المشترك لا يمكن حمله فى طرفى النفى والإثبات على معنييه جميعاً وهذا يسقط الاستدلال .

د - الوجه الرابع وهو الذى اختاره الفخر الرازى وصحَّحه وخلاصته أن قول اللَّه تعالى: ﴿ يا . . لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ . . ﴿٨﴾ ﴾[التحريم] . . لا يقتضى نفى الإخزاء مطلقاً وإنما يقتضى أن لا يحصل إلا خزاء حال ما يكون مع النبى . . وهذا النفى لا يناقضه إثبات الإخزاء فى الجملة لاحتمال أن يحصل ذلك الإثبات فى وقت آخر . . أ . هـ.

وهذا الرأى نرجحّه لوجاهته وسلامته من الاعتراضات واللغة والمنطق لا يأبيانه .

الصفة الرابعة : ﴿ . . وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾[**آل عمران**] .

تحمل هذه الجملة فى طياتها أربعة أهداف :

الهدف الأول : أنها ثناء ومدح على اللَّه تعالى فى كونه تعالى ما كان ولن يكون نصيراً للظلمة والمفسدين .

الهدف الثاني : مسبب عن الهدف الأول أي أنه من خلال ما يتحمله من معنى يتجمل المبتلون بالظلمة فى الدنيا بالصبر الجميل ليقينهم بأن الله تعالى لن يترك هؤلاء الظلمة على هواهم بل سوف يلقون جزاءهم كاملاً .

الهدف الثالث : الزجر والتهديد والوعظ والتأديب لهؤلاء الظَّلمة ومن يرغب فى محاكاتهم حيث ثبت أن الظَّلمة لن يجدوا لهم أي نصير على ظلمهم فى الدارين وإن امتدت بهم السنون .

الهدف الرابع : التوبة من الظُّلم والرغبة الصادقة فى أن لا يجعلهم من الظالمين .

الصفة الخامسة : ﴿ **رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا** .. ﴿١٩٣﴾ ﴾[**آل عمران**] .

مدحهم اللَّه تعالى بعظيم استجابتهم لدعوة رسل اللَّه فيما بلَّغوا عن ربهم من توحيد وتشريع .. وهذه الجملة الكريمة ساقها أولوا الألباب تمهيداً لدعائهم الآتى ولكن من هذا المنادى؟

أ - قال ابن عباس وأكثر المفسرين : المنادى هو مُحَّمد ﷺ ، ويدل على صحة هذا قوله تعالى ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ** .. ﴿١٢٥﴾ ﴾[**النحل**] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا** ﴿٤٦﴾ ﴾[**الأحزاب**] .

ب- وقال محمد بن كعب القرظى : المنادى هو «القرآن» لأنه ليس كل أحد لقى النبى ﷺ ، ووجه هذا القول أن كل أحد يسمع القرآن ويفهمه فإذا وفَّقه اللَّه تعالى للإيمان به فقد فاز به ، وذلك لأن القرآن مشتمل على الرُّشد والهدى وأنواع الدلائل الدالة على الوحدانية فصار كالداعى إليها . و«اللام» بمعنى : إلى .

الصفة السادسة والسابعة :

﴿ .. **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا** .. ﴿١٩٣﴾ ﴾[**آل عمران**] .

أي من صفات أولى الألباب الحميدة أنهم يطلبون من الله عدم مؤاخدتهم على ما اقترفوا من ذنوب وأن يستر ما بَدر منهم من سيئات .. ولكن هل الغفران غير

التفكير؟؟ والذنوب غير السيئات ؟ . . للإجابة عن هذا نستعرض ما سرده الخازن فنقول وبالله التوفيق .

١ - قيل : إن الغفران والتكفير بمعنى واحد وهو الستر والتغطية وإنما ذكرهما للتأكيد لأن الإلحاح فى الدعاء والمبالغة فيه مندوب إليه .

٢ - وقيل : معناه اغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا فى المستقبل .

٣ - وقيل : أريد بالغفران كل ما يزول بالتوبة من الذنوب، وأُريد بالتكفير ما يكفَر بالطاعات من الذنوب .

٤ - وقيل : اغفر لنا ذنوبنا الكبائر وكفر عنا سيئاتنا الصغائر .

وعلى كل حال فهم أرادوا مغفرة عامة وتكفيراً عاماً لما سبق ولما هو آت بالتوبة والطاعات .

الصفة الثامنة : ﴿ . . وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ **[آل عمران]** .

امتدحهم الله تعالى بهذه الجملة المفيدة لرغبتهم فى أن يوفقهم جل شأنه لأفضل الأعمال والأقوال . . إذا أنهم طلبوا أن يكونوا فى معيَّة الأبرار، والأبرار هم الذين باشروا أسمى الأعمال وأحكم الأقوال وهؤلاء ما هم إلا الأنبياء والرُسل والأولياء . . فإذا طلب أولوا الألباب أن يتوافاهم اللَّه على الصورة التى توفى الأبرار عليها فهم فى الحقيقة إنما يطلبون من الله أن يرزقهم عن الأفعال والأقوال ما يجعلهم فى عداد وزُمرة الرُسل والأصفياء حياةً ووفاة ونعيماً فى الآخرة حيث يكونون فى درجتهم يوم القيامة . . أو قد يكون الهدف من هذه العبارة الكريمة توفنا فى جملة أتباعهم وأشياعهم .

الصفة التاسعة : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ . . ﴿١٩٤﴾ ﴾ **[آل عمران]** .

أي مما اتصف به هذا الصنف من الناس أنهم يأملون فى اللَّه طالبين أن يمنحهم ما وعدهم به على لسان رُسُله . . فهم بهذه الجملة يطلبون أحد أمرين أو هما معاً ولا حرج فى ذلك ففضل الله كثير .

الأمر الأول : يا رب اعطنا ما وعدتنا به على تصديقنا برسلك وبرسالاتهم .

الأمر الثانى : يا رب اعطنا ما وعدتنا به على ألسنة رسلك . . قال ابن كثير فى تفسيره وهذا أظهر .

ومما تجدر الإشارة إليه سؤال الخازن فى هذا المقام وجوابه . . ويتلخص هذا السؤال فى قوله : كيف سألوا اللّه إنجاز ما وعدهم اللّه به واللّه لا يخلف الميعاد؟

وجوابه أورده فى أحد أمور أربعة أو هى كلها :

١ - قد يكون قصدهم من هذا المطلب أن يوفقهم الله إلى ما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد .

٢ - أو هو من باب الملجأ إلى الله تعالى والتذلُّل له وإظهار الخضوع والعبودية كما أن الأنبياء عليهم السلام يستغفرون الله مع علمهم أنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك التذلل لربِّهم سبحانه وتعالى والتضرع إليه والملجأ إليه الذى هو سيما العبودية .

٣ - وقيل : معناه ربنا واجعلنا ممن يستحق ثوابك وتؤتيهم ما وعدتهم على ألسنة رسلك لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها .

٤ - وقيل : إنما سألوه تعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء كأنهم قالوا قد علمنا أنك لا تخلف الميعاد ولكن لا صبر لنا على حلمك فعجِّل هلاكهم وانصرنا عليهم .

الصفة العاشرة : ﴿ . . **وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ** . . ﴿١٩٤﴾ ﴾[**آل عمران**] .

وصفهم الله تعالى بحسن بلاغتهم حيث لم يكتفوا بقولهم : ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ** ﴾ لتضمنه ما هدفت إليه هذه الفقرة بل إنهم هنا أتوا بها صراحة لأن الأمر جد خطير لا يكتفى فى مثل هذه المواقف بالتضمين أو باللازم عن الملزوم فرجوا اللّه أن لا يهلكهم ولا يهينهم ولا يفضحهم يوم القيامة .

ولما كان الدعاء السابق وهو ﴿ **رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ** ﴾ يوهم ظاهره الاستغناء عن هذا الدعاء تسنى للخازن أن يورد اعتراضاً مؤداه ما يلى :

ما الفائدة من هذه الجملة إذا كان قد اندفع عقابهم لحصولهم على الثواب الذى وعدهم اللَّه به على لسان رسله ووفَّاهم به جزاء أعمالهم؟ وكما افترض الخازن هذا التساؤل أجاب عنه بجوابين وهما :

أ - لعل المقصود من ﴿ **ولا تُخْزِنا يوْمَ الْقِيامَةِ** ﴾ طلب التوفيق على الطاعة، والعصمة عن فعل المعصية وكأنهم قالوا : يا ربنا وفقنا للطاعات وإذا وفقتنا لها فأعصمنا عن فعل ما يُبطلها ويوقعنا فى الخزى وهو الهلاك.

ب- ويحتمل أن قوله ﴿ **وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ سبباً لقوله تعالى ﴿ .. **وبَدَا لَهُم مِن اللَّه ما لمْ يكُونُوا يحْتسبُونَ** (٤٧) ﴾[**الزمر**]. . فربما يظن الإنسان أنه على عمل صالح فإذا كان يوم القيامة ظهر أنه على غير ما يظن الإنسان أنه على عمل صالح فرذا كان يوم القيامة ظهر أنه على غير ما يظن فيحصل له الخجل والحَسَرة والندامة فى مواقف يوم القيامة فسألوا اللَّه تعالى أن يُزيل ذلك عنهم فقالوا ولا تُخزنا . . إلخ.

الصفة الحادية عشر : ﴿ **إنَّكَ لا تُخْلفُ الْميعادَ** (١٩٤) ﴾[**آل عمران**].

أي أن أولى الألباب أثنوا على ربهم بهذه الجملة المؤكدة فهذا الثناء منهم على الله تعالى إنما ذكروه إعلاناً منهم واعترافاً وطمأنينة لأنفسهم وأماناً وتعبداً بتكراره وتلذذاً. . أي لابد من الميعاد الذى أخبرت عنه رسلك وهو القيام بين يديك يوم القيامة.

(٤) هل استجاب اللَّه دعاءهم ؟

نعم لقد استجاب الله تعالى لهم حيث قال : ﴿ **فاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ** .. (١٩٥) ﴾

[**آل عمران**]

والإتيان بالفاء دون سائر حروف العطف للدلالة على أن من اتصفوا وتفَّوهوا بهذه الجمل هم الجديرون بأن يستجاب دعاؤهم على الفور فالفاء عاطفة على ما قبلها المذكور أو على محذوف يقتضيه المقام تقديره «دعوا الله بهذه الأدعية فاستجاب لهم» ومن عظيم فضله تعالى آن آثر لفظ الربوبية على لفظ الألوهية المنبىء عن كمال تربيته

لهم وعنايته بهم واستجابته هذه أثر من آثار تربيته ورحمته بهم. . كما أتى بالسين والتاء لكمال رعايتهم والتنويه بشأنهم. . كما أن لفظ الاستجابة اختير على لفظ الإجابة لبيان أنه تعالى أعطاهم سؤالهم وهذا على القول بالفرق بين الإجابة والاستجابة إذ الأولى عامة والثانية خاصة . . وقيل : هما بمعنى واحد والأول أرجح إذ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . . ولكن كيف استجاب الله لهم ؟ اجابته تعالى لهم هى ما أفادته الجمل والقضايا التى ذكرها الله تعالى ابتداء بقوله تعالى : ﴿ .. أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ .. ﴿١٩٥﴾ ﴾[آل عمران] .

(٥) مكانة هذه الآيات العشر بالنسبة للإسلام والمسلمين :

ونذكر هنا مكانة هذه الآيات العشر والتى سبق توضيح ما جاء فيها من دعاء، بالنسبة للإسلام والمسلمين من خلال أقوال الرسول وأفعاله ﷺ لتكون خير أسوة تحتذى من عباده الله الصالحين .

وروى البخارى من طرق عن مالك عن مخرمة بن سليمان عن كريب أن ابن عباس أخبره أنه بات عند ميمونة زوج النبى ﷺ وهى خالته قال : فاضجعت فى عرض الوسادة ، واضجع رسول الله ﷺ فى طولها، فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف عالليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ﷺ عن منامه ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل عمران ثم قام إلى شن[1] مُعَلَّقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلى ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : فقمت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت إلى جنبه، فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسى وأخذ بأذنى اليمنى ففتلها فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح، وهكذا أخرجه بقية الجماعة من طرق عن مالك به، ورواه مسلم أيضاً وأبو داود من وجوه أُخر عن

(١) الشَّنُّ : القربة الخَلَقُ .

مخرمة بن سليمان به ، وقال ابن كثير طرق أخرى لهذا الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما . . قال أبو بكر بن مردوية وفيه أن العباس أرسل ابنه عبدالله، حيث قال هذا الابن أي عبدالله بن عباس أمرنى العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ وأحفظ صلاته، وفيه أن الرسول لما استوى على فراشه قاعداً رفع رأسه إلى السماء فقال سبحان الملك القدوس ثلاث مرات ثم تلا الآيات العشر، وفى رواية رواها ابن مردويه من حديث عاصم بن بهدلة وفيه أن الرسول خرج ذات ليلة بعدما مضى ليل فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية إلى آخر السورة ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴿١٩٠﴾ ﴾[**آل عمران**] . . ثم قال :« **اللهم اجعل فى قلبى نوراً، وفى سمعى نوراً وفى بصرى نوراً ، وعن يمينى نوراً، وعن شمالى نوراً ومن بين يدى نوراً ومن خلفى نوراً ومن فوقى نوراً ومن تحتى نوراً ، وأعظم لى نوراً يوم القيامة**»، وهذا الدعاء ثابت فى بعض طرق الصحيح من رواية كريب عن ابن عباس رضى الله عنه.

ومما يدل على عظم هذه الآيات العشر أيضاً ما رواه ابن كثير فى تفسيره عن ابن مردويه حيث قال:

قال ابن مردويه : حدثنا على بنى إسماعيل حدثنا بن على الحرانى حدثنا شجاع بن أشرس حدثنا حشرة ابن نباتة الواسطى حدثنا أبو مكرم عن الكلى وهو أبو حباب عن عطا قال: انطلقت أنا وابن عُمَر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنهما فدخلنا عليها وبينها حجاب، فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زياتنا؟ قال قول الشاعر زُرْ غَبَاً تزدد حُباً . فقال ابن عمر ذرنا، أخبرنا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ، فبكت وقالت كل أمره كان عجباً أتانى فى ليلة حتى مسَّ لده جلدى ثم قال :« **ذرينى أتعبد لربى عز وجل**» قالت: فقلت: والله إنى لأُحُبُ قُربْك وأنى أُحبُّ أن تعبد ربك . . فقام إلى القربُة فتوضأ ولم يُكْثر صب الماء ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، قال: يا رسول الله ما يُبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم

من ذنبك وما تأخر؟ فقال: « ويحك يا بلال . . وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل اللّٰه علىَّ فى هذه ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴿١٩٠﴾ ﴾ ثم قال: « **ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها** » وقد رواه عبد بن حميد فى تفسيره عن جعفر بن عوف الكلبى عن أبى حباب عن عطاء.

قال ابن أبى الدنيا : وحدثنى قاسم بن هاشم حدثنا على بن عباس حدثنا عبدالرحمن بن سليمان قال: سألت الأوزاعى عن أدنى ما يتعلق به المتعلق من الفكر فيهن وما ينجيه من هذا الويل، فأطرق هنية ثم قال: قرأهن وهو يعقلهن[1]. أ. هـ.

(٤) ما يؤخذ من هذه الآيات وما يستفاد منها :

١ - التفكر فى خلق الله هو الطريق الأفضل لتحقيق الإيمان والاستزادة من طاعة الله تعالى.

٢ - التفكر فى ذات اللّٰه مضيعة للوقت وخبل فى العقل قد يودى بصاحبه إلى التهلكة الدينية.

٣ - أصحاب العقول الناضجة النيِّرة المؤمنة هم الذين يرون اللّٰه فى كل مخلوق من مخلوقاته.

٤ - الصلاة والذكر ينبغى على المؤمن الدوام عليهما حتى لا يمضى زمن أو حال إلا وقد تزين بهما.

٥ - عظمة التعاليم الإسلامية تتجلى فى يُسرِّها ومرونتها دون إرهاق المكَلَّفين بها.

٦ - الإقرار والاعتراف والاقتناع بأن اللّٰه لم يخلق شيئاً عبثاً أو لهواً أو على سبيل الصُّدَف والعفوية.

٧ - تنزيه اللّٰه فى ذاته وصفاته وأفعاله عن كل عيب وشين وعبث أمر واجب على المسلم العاقل ببصائر الأمور.

---

(١) وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٤٤٠ ومثل ذلك رواه الخازن فى تفسيره.

٨ - مَزْج الدعاء بالثناء من أهم أسباب قبول واستجابته والرضا عن صاحبه .

٩ - . ليس كل من دخل النار بخالد فيها - كما ليس كل من أُخْزِىَ فى جهنم مؤبد فيها .

١٠ - لا مانع عقلاً ولا شرعاً من إطلاق لفظ المنادى «إلى الإسلام وطريق الله» على القرآن .

١١ - قد يطلق الغفران والتكفير بمعنى واحد وهو ستر الذنوب وتغطيتها ، وقد يُراد بكل منهما معنى يغاير الآخر .

١٢ - طلب المغفرة والتفكير والوقاية من نار جهنم من صفات الإنسان الصالح المستقيم المؤمن .

١٣ - لا مانع من طلب ما سيتحقق نفاذه من قِبَل اللَّه تعالى على سبيل التَّبرُّك والتلذُّذ .

١٤ - قد تكون الإجابة على أدعية الداعين بالأخبار عن قضايا الله العامة فى أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً وإنما يوفى كل امرئ ثمرة جهده وطاعته .

١٥ - هذه الآيات وما اشتملت عليه من دعاء تعتبر بحق خير أسلوب للدعاء حيث جمعت شعَب الدين الإلهى الذى أرسل الله به أفضل رسله إلى الإنس والجن وهذه الشِّعَب هى الإيمان والإسلام والإحسان فهى نموذج إلهى للدعاء ليقتدى به المسلمون فى مناجاتهم للَّه تعالى وبخاصة أن الله جل شأنه لم ينسبها إلى أحد من خلقه على سبيل التعيين بل بالصفة حيث أخبر عمَّن اتَّصفوا بهذه الصفات وهُم أولوا الألباب . أ . هـ .

الفصل السابع

دعاء بعض النصارى فى القرآن الكريم

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) ﴾ [المائدة] . .

بعد أن بيَّن اللهَّ تعالى فى الآيات السابقة لَعْنُ الكافرين من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، وأماط اللثام عن عداوة اليهود والمشركين الشديدة لرسول الله ﷺ والمؤمنين برسالته، أوضح فى صورة المدح موقف بعض النصارى المعاصرين للرسول عليه الصلاة والسلام عن رسالته وقرآنه حيث أبان أنهم أعلنوا إيمانهم ورجوا أن يكونوا من المقربين اللَّه تعالى، طامعين فى دخول الجنة مع المؤمنين متعجبين ممن عيَّروهم من اليهود فى اعتناقهم الإسلام . . وعلى ضوء هذا فنقاط البحث فى هذا الدعاء ما يلى :

(١) من قائل هذا الدعاء؟ (٢) ما عددهم؟ (٣) بما وصفهم الله تعالى؟ (٤) ما هو دعاؤهم ؟ (٥) هل استجاب الله تعالى دعاءهم؟ (٦) ما يؤخذ من هذا الدعاء وملابساته .

(١) من قائل هذا الدعاء ؟

قائل هذا الدعاء بعض أتباع عيسى عليه السلام المعاصرون لرسول الله ﷺ وكل أتباعه يُسمُّون بالنصارى ولكن من هم على وجه التعيين ؟ تعددت الروايات فى ذلك نذكر منها ما يلى :

الرواية الأولى :

عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فى النجاشى وأصحابه الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبى طالب بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم، ولكن ضعفت هذه الرواية نظراً لأن هذه الآيات مدنية وقصة جعفر مع النجاشى كانت قبل الهجرة ولكنى أرى عدم ضعفها لهذا السبب لأن نزول بعض الآيات القرآنية لم يكن فور حصول سببها فكم من آية نزلت بعد سببها بزمن ليس باليسير.

الرواية الثانية :

عن سعيد بن جبير والسدى وغيرهما أنها نزلت فى وفد بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته، فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشى فأخبروه ، قال السدى فهاجر النجاشى فمات فى الطريق.

واعترض على هذه الرواية أيضا بأن هذا من إفراد السّدى . . وأن النجاشى مات وهو ملك الحبشة وصلى عليه النبى ﷺ حينما أخبر به أصحابه كما أخبروا بأنه مات بأرض الحبشة.

الرواية الثالثة :

عن عطاء بن أبى رباح أنهم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين.

الرواية الرابعة :

لقتادة فقد قال : هم قوّم كانوا على دين عيسى عليه السلام فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا.

الرواية الخامسة :

قال مجاهد : هم الذين جاءوا مع جعفر رضى الله عنه مسلمين أي رجعوا معه من الحبشة.

الرواية السادسة :

هى لابن جرير فقد ذهب إلى القول بأن هذه الآيات نزلت فى صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أم من غيرها . . وعلى ضوء قول ابن جرير هذا يكون نزول هذه الآيات غير مسبَّب . . ولعل ابن جرير جرى على القول بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . . وهذه القاعدة لا يتأتى تطبيقها فى مثل هذا المقام، وقد نزلت هذه الآيات وما فيها من صفات ودعاء لقوم مخصوصين فلا داعى لعمومها ولا مبرر لذلك . . إذا كان هذا العموم ينفى نزولها فيمن سبق ذكرهم فى الروايات السابقة .

(٢) ما عدد هذا الوفد على هذه الروايات ؟ اختُلفَ فيه .

(١) قيل : (١٢) قساوسة وخمسة رهبان . (٢) قيل : بعكس الأول . (٣)وقيل : خمسون . (٤) وقيل : سبعون . (٤) وقيل : بضع وستون . أ . هـ .

(٦) قال مجاهد : هم سبعون رجلا . اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام وهم بحيرة الراهب، وأبرهة، وأشرف، وتمام، وقتم، ودريد، وأيمن .

(٣) بما وصف الله تعالى أصحاب هذا الدعاء ؟

(١) **الصفة الأولى** : ﴿ . . **ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا** . . ﴿٨٢﴾ ﴾ امتدحهم الله تعالى بأن فيهم هذين الصنفين من الرجال فمن هم القسيسون والرهبان؟

أ) القسيسون : هم علماء النصارى وعُبَّادهم ورؤسائهم ، وهو جمع قس، وجمع قسيس وجمعهما قسوس أيضاً . . والصيغة تفيد المبالغة من تقسس الشىء إذا تتبعه بالليل، سُمُّوا بذلك لمبالغتهم فى تتبع العلم قال الراغب وقال قرطب : القس والقسيس هو العالم بلغة الروم .

ولكن ما أصل هذا اللفظ؟ (أ) قيل : هو عربى (ب) قيل : هو أعجمى تكلَّمت به العرب وأجروه مجرى سائر كلامهم وقالوا فى المصدر قسوسة، وقسيسية وفى الجمع قسوس وقسيسون وقساوسة ، وكان الأصل قساسة إلا أنه كثرت السيئات فأبدلوا

إحداهن واوا . . لكن فى مجمع البيان نقلاً عن بعضهم أن النصارى ضيعت الإنجيل
وأدخلوا واوا . . لكن فى مجمع البيان نقلاً عن بعضهم أن النصارى ضيعت الإنجيل
وأدخلوا فيه ما ليس منه وبقى من علمائهم واحد على الحق والاستقامة يقال له قسيس فمن كان على هديه ودينه فهو قسيس .

ب) الرهبان : هم المنقطعون للتعبد فى الصوامع . . ولكن هل هذا اللفظ مفرد أم جمع؟ قيل: بكل : (أ) فذهب الفراء إلى أنه مفرد وجمعه رهابين مثل قربان وقرابين مستدلاً بقول الشاعر :

لو أبصرت رهبان دير فى الجبل　　　لانحدر الرهبان يسعى ونذل

(ب) وذهب ابن جرير إلى أنه جمع مستدلاً بقول القائل : رهبان مدين لو رأوك ترَهبوا .

(جـ) وذهب أبو عبيدة إلى أن هذا اللفظ صالح للمفرد والجمع .

وعلى كل حال فجمع الرهبان كما جاء فى القاموس واحد وهو : رهابين، رهبانية رهبانون . . والفعل رهب الله يرهبه أي خافه ومصدره الرهبة والرهبانية، وهى التعبد فى الصوامع غير أن الفيروزابادى والجوهرى لم يقِّيدا هذا التعبد بالصومعة .

وقد ذُكر فى النهاية أنهم كانوا يترهبون بالتخلى من أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها وتعمد مشاقها حتى أن منهم من كان يَخصِى نفسه ويضع السلسلة فى عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب التى نفاها الرسول ﷺ ونهى المسلمين عنها فى قوله: :«**لا رهبانية فى الإسلام**» ، والمراد بها كما قال الراغب: الغلوَ فى تحمُّل التعبد فى فرط الخوف. . والتنكير فى «رهباناً» لإفادة التكثير ولابد من اعتبارها فى القسيسين أيضاً . . ولذلك اعتبرت ذكر «قسيسين ورهباناً» بعد لفظ (نصارى) من صفات النصارى التى امتُدحوا بها ، إذ هى تدل على مودة جنس النصارى للمؤمنين فإن اتصاف أفراد كثيرة لجنس بخصلة مظنة لاتصاف الجنس بها وإلا فمن اليهود أيضاً قوم مهتدون لكنهم لما لم يكونوا فى الكثرة كالذين فى النصارى

لم يتعد حكمهم إلى جنس اليهود[1].

ولذلك قال ابن كثير : فى النصارى مودة للإسلام وأهله فى الجملة وما ذاك إلا لما فى قلوبهم . . إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى﴿ . . **وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً** . . ﴿٢٧﴾ ﴾[**الحديد**] . وكذلك ما ورد فى كتابهم «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر» . . وليس القتال مشروعاً فى ملتهم .

كما ذكر الألوسى فى تفسيره عن ابن المنير قوله : « لم يقل سبحانه النصارى كما قال جل شأنه اليهود ، تعريضاً بصلابة الأولين فى الكفر والامتناع عن الانقياد» .

(٢) الصفة الثانية : ﴿ . . **وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴿٨٢﴾ ﴾[**المائدة**] . هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى : ﴿ **بِأَنَّ مِنْهُمْ** ﴾ أي ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأن منهم متواضعين لا يستكبرون وهذا وصف لهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع وأنهم لا يأبون الحق إذا عرفوه فينقادون له ويتبّعونه .

(٣) الصفة الثالثة : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴿٨٣﴾ ﴾[**المائدة**] . . هذه الصفة تعليل لما قبلها . . أي هم لا يستكبرون على الحق لأنهم يتأثرون لسماعهم ما أُنزل إلى الرسول ﷺ لدرجة أن الدموع تنحدر من مآقيهم حيث ظهر لهم جلياً صدق ما جاء فى كتابهم من البشارة برسول الله محمد ومطابقة ذلك لما سمعوه من القرآن الكريم فهم للحق منقادون فى أبلغ صوره . . ومعنى الإفاضة امتلاء العين بالدمع لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء وفى إسناد الفيض إلى العين من المبالغة ما فيه لأن العين لا تفيض وإنما الذى يفيض هو الدمع .

---

(١) روح المعانى للألوسى .

ولبيان وجه البلاغة فى قوله تعالى: ﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ﴾ على غيره من التعبيرت نذكر ما قاله الألوسى فى هذا المقام قال رحمه الله : ﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ﴾ هذه أبلغ العبارات وهى ثلاث مرات.

المرتبة الأولى : فاض دمع عينه وهذا هو الأصل.

المرتبة الثانية : فاضت عينه دمعاً قد حول فيها الفعل إلى العين مجازا ومبالغة ثم نبه على الأصل والحقيقة بنصب ما كان فاعلاً على التمييز.

المرتبة الثالثة : تفيض أعينهم فى هذا التعبير التحويل سالف الذكر الذى فى المرتبة الثانية ووجه البلاغة هذه على الثانية ثلاثة أمور.

أ) عدم التنبيه على الأصل ب) عدم نصب التمييز.

جـ) إبراز التعبير فى صورة التعليل.

(٤) ما هو دعاؤهم ؟

دعاؤهم هو : ﴿ .. رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة] . .

الجملة الأولى : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ ، استئنافية جواباً لسؤال مُقَدَّر كأنه قيل: فما حالهم وقولهم عند سماع القرآن؟ . . قيل: حالهم أن أعينهم تفيض دمعاً وقولهم ربنا آمنا أي آمنا بنبيك محمد والقرآن الذى أنزلته عليه ولعلهم لم يذكروا مفعول الإيمان ليعم فيشمل إيمانهم بجميع ما جاءت به رُسُل اللَّه.

الجملة الثانية : ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ، ولعل الفاء رتبت ما بعدها على ما قبلها أي من أجل إيماننا بكل ما جاء به رسلك من عندك فاكتبنا مع أمة نبيك محمد الذين يشهدون على الناس يوم القيامة أو الذين شهدوا بأن دينك الحق ، أو الذين شهدوا أن رسولك محمداً خاتم النبيين وأنه إلى الخلق أجمعين . . روى ابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضى

الله عنه فى قوله ﴿فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي مع محمد ﷺ وأمته وهم الشاهدون يشهدون لنبيهم عليه الصلاة والسلام أنه قد بلغ الرسل أنهم قد بلغوا ثم قال الحاكم: صحيح الإنساد ولم يخرجاه.

ولقد طلب حواريو عيسى وهم خواص أتباعه ما طلبه نصارى الحبشة فى عصر النجاشى فسبحان من أنطق الآخرين بما أنطق به الأولين مع اختلاف الزمان والمكان والحال والملابسات وقد سبق أن ذكرنا عند دعاء الحواريين سبعة أقوال فى المراد من «الشاهدين» نكتفى بذكرها هناك عن ذكرها هنا.

الجملة الثالثة : ﴿وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ لعلهم قالوا لمّا عيَّروهم اليهود باعتناقهم الإسلام . . فالكلام مستأنف والاستفهام للاستبعاد وهو موجه من النفى أي القيد والمقيد جميعاً كقوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[نوح]. أي استبعدوا انتفاء الإيمان ويصدّنا عن اتباع الحق وقد لاح لنا الصواب، وظهر الحق المنير؟ قالوا: ذلك فى جواب من عيّرهم بالإسلام من اليهود. . قال فى الحبر : هذا إمكار واستبعاد لانتفاء الإيمان منهم مع قيام موجبه وهو عرفان الحق[1] ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، أى ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة بصحبة الصالحين من عباده الأبرار.

وروى الطبرانى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ قال: إنهم كانوا كرابين يعنى فلاحين قدموا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة فلما قرأ رسول الله ﷺ القرآن آمنوا وفاضت أعينهم فقال رسول الله ﷺ : « لعلم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم، فقالوا: لن ننتقل عن ديننا فأنزل الله ذلك من قولهم ﴿وما لنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِين ﴿٨٤﴾ ﴾[المائدة].

وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾[آل عمران].

وهم الذين قال لهم فيهم أيضاً : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ** ﴿٥٢﴾ ﴾[**القصص**] .

وقال الله فيهم أيضاً : ﴿ **وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ** ﴿٥٣﴾ ﴾[**القصص**] إلى قوله تعالى ﴿ .. **لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** ﴿٥٥﴾ ﴾ .

الجملة الرابعة : ﴿ .. **وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ** ﴿٨٤﴾ ﴾[**المائدة**] .

من حسن أخلاقهم وحميد صفاتهم وعمق إيمانهم أنهم عبَّروا عن رغبتهم فى دخول الجنة مع الصالحين بلفظ الطمع الدال على أمرين اثنين أحدهما دلالة هذا اللفظ على الرغبة الشديدة والشوق والحنين والثانى اعترافهم فى طي هذا اللفظ بأنهم لا يرغبون فى دخول الجنة بأعمالهم وأقوالهم الحسنة بل بلفضل اللَّه وكرمه وإحسانه .

أي أدخلنا يا رب بمحض فضلك الجنة صحبة عبادك الصالحين الذين صلحت أعمالهم وزقوالهم وثباتهم فكانوا عندك من المرضيين .

(٥) هل استجاب الله تعالى دعاءهم ؟

نعم لقد أجزل الله لهم العطاء جزاء إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق فقال تعالى : ﴿ **فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** ﴿٨٥﴾ ﴾[**المائدة**] .. ولكن ما هو القول الذى علل اللَّه به إثابتهم ؟ اختلفت الآراء فى ذلك وأهمها ما يلى :

١ - استظهر أبو حيان أنه عنى به قولهم ﴿ **رَبَّنَا آمَنَّا** ﴾ .

٢ - وعن ابن عباس وعطاء أن المراد بالقول هنا هو : ﴿ **فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ وقولهم : ﴿ **وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ** ﴾ .

٣ - وقال الطبرى : القول هنا بمعنى المسألة .

٤ - وقيل : إن القول هنا مجاز عن الرأى والاعتقاد والمذهب .

٥ - ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد من القول هنا هو قولهم : ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله ﴾ الآية .

ومن عظيم مكانتهم عند اللّه تعالى أنه آثر لفظ «أثابهم» على «أعطاهم» لأن الأولى ما تكون عن عمل بخلاف الإعطاء فإنه لا يلزم فيه ذلك . . رواه البحر قائلا أن كلمة أثابهم أبلغ من أعطاهم . . كما أن القرآن عدل عن الضمير إلى الظاهر وهو لفظ «المحسنين» لمدحهم وتشريفهم بهذا الوصف الكريم حتى ولو احتمل اللفظ الجنس فهم داخلون فيه دخولاً أولياً .

(٦) ما يؤخذ من هذا الدعاء وملابساته :

١ - أكثر الناس مودة للمسلمين هم النصارى وبخاصة الأولون منهم أما المعاصرون فقد لعب بهم الاستعمار .

٢ - أكثر الناس عداوة للمسلمين هم اليهود والمشركون وثقلهم الظاهر فى عصرها الحاضر تمثله أمريكا .

٣ - الحث على اكتساب العمل والتجمل بالتواضع والخوف من الله تعالى والمواظبة على طاعته .

٤ - للقرآن تأثيره البالغ فى القلب وقد ينعكس ذلك على العين فتدمع من خشية الله تعالى .

٥ - الإسراع فى الاعتراف بالحق فور ظهوره جلياً وإعلان الإيمان به .

٦ - رغبة الإنسان المؤمن أن يكون فى عداد الصالحين والطمع فى ذلك أمر مشروع ومستحب .

٧ - هؤلاء القساوسة والرهبان فى قلوبهم رقة وشفقة والسبب فى ذلك تعاليم الإنجيل وعيسى عليه السلام .

٨ - يستجيب الله الدعاء إذا توفرت شروطه من الإخلاص وصفاء النيّة والتجمّل بالتواضع والخشوع .

الفصل الثامن
دعاء المؤمنين من قوم شعيب النبي عليه السلام

قال تعالى : ﴿ .. وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف] .

هذا الثناء والدعاء الصادر من المؤمنين أتباع سيدنا شعيب عليه السلام هو امتداد لقصته التي ابتدئت بقوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف] .

والتي ظهر من خلالها أن شعيباً دعا قومه إلى عبادة اللَّه وتوحيده، ونصحهم بالوفاء الكيل والميزان، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم، وعن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، وعن الجلوس في الطرقات تهديداً للناس، وصداً لهم عن الدخول في الإسلام، وذكَّرهم بنعم اللَّه تعالى . . عليهم وقت أن كانوا قلة فكثر عددهم كما نبَّههم إلى ما آله إليه أمر المفسدين أمثالهم من سوء العاقبة، ثم هدَّد الكافرين من قومه باللَّه ورسوله كما واسى المؤمنين منهم باللَّه ورسالته، وصدَّهم على ما أُوذوا به قائلاً لهم : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأعراف] .

فماذا كان موقف كفار قومه منه وموقف المؤمنين به ؟

لقد هدد كفار قومه كما هددوا المؤمنين به وذلك بإجبارهم على اختيار أحد أمرين أحلاهما مُرّ وإن كان قصدهم الأهم الثاني وهو عَوْدهم إلى ملّتهم ملّة الشّرك بدليل عمد تعرُض شعيب للأول وإنما ذكروه لمجرد القسر والإلجاء . . يحكى ذلك القرآن عنهم فيقول : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأعراف] . فكان رد شعيب عليه

السلام أصالة عن نفسه ونيابة عن إخوانه المؤمنين مشتملاً على سبع جمل هى ما يلى:

الجملة الأولى: ﴿.. أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾.. هذه الجملة مستأنفة جواباً لسؤال تضمنته مقالتهم الباطلة السابقة كما أنها تكذيب لهم فى أيمانهم الفاجرة، والواو للحال والهمزة للإنكار والوقوع ونفيه.. وجوّز البعض كون الهمزة بمعنى «كيف» وعلى كل ففى الجملة استهزاء وسخرية بالكفار وتعجب من تقديرهم.. إذ التقدير «أنعود فيها حال عدم الكراهة وحال الكراهة، غير أنه اكتفى بذكر الثانية لأنها أشد الأحوال منافاة للعود بل وأكثرها بُعْداً منه.. ولعل المقصود من ذلك التنبيه على أنها هى الحاصلة فعلاً، كما أن الثقة كاملة بإغنائها عن الأولى إغناءاً واضحاً، لأن العود الذى تعلق به الإنكار حين تحقق مع الكراهة على ما يوجبه كلامهم فلأن يتحقق مع عدمها أولى.

ومعنى الآية: يقول أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله فى جعل الشركاء معه أنداداً وهذا تنفير منه عن أتباعهم.

الجملة الثانية: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا.. ﴿٨٩﴾﴾[الأعراف].

لقد دلت هذه الجملة على عظم إيمانهم وعمق عقيدتهم إذ تصور هذه الجملة استحالة عودتهم إلى ملة قومهم ويعتبرون العائد إليها بعد نجاة الله له لإيمان قد اختلق على الله كذباً عظيماً.. وهذا لا يجوز فى حقهم، كيف والحال أن اللّه هداهم للإيمان فعرفوا طريق الحق.. وهل من العقل أن يرتد «من استبان له نور الإيمان» إلى ظلام الشرك.. اللهم لا.

الجملة الثانية: ﴿..وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا.. ﴿٨٩﴾﴾[الأعراف].

هذه الجملة أيضاً تدل دلالة واضحة على عمق الإيمان فى قلوبهم وتشبثهم برسالة نبيهم ، كما تدل على خضوعهم الكامل لخالقهم حيث يعترفون بأنهم لا يأمنون مكر الله لأنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . . وفى ذلك من الانقطاع إلى الله تعالى انقطاعاً تاماً لا يخفى . . كما أن تعرضهم لعنوان الألوهية والربوبية يدل على كمال توحيدهم وإقرارهم بأنه تعالى هو المالك لكل شيء . . ولكن ما تقدير هذه الجملة؟ وما مرجع الضمير الوارد فى لفظ «فيها» ؟

ذكر الإمام الألوسى عدة أقوال فى تعليقهم العودة إلى ملة قومهم على مشيئة الله تعالى أهمها ما يلى :

(١) قال الجبائى والقاضى : المراد بالملّة الشريعة وفيها ما لا يرجع إلى الاعتقاد ويجوز أن يتعبد اللَّه عباده به . . ومفعول المشيئة العود إلى ذلك . . أي ليس لنا أن نعود إلى ملتكم إلا أن يشاء اللَّه تعالى عودنا بأنا يتعبدنا بها وينقلنا إليها وينسخ ما نحن فيه من الشريعة .

(٢) وقيل : إن المراد إلا أن يشاء الله تعالى أن يمكنكم من إكراهنا ويخلى بينكم وبينه فتعود إلى إظهار ملتكم مكرهين .

(٣) وقيل : إن الضمير فى «فيها» يعود إلى القرية لا إلى الملَّة وعليه يكون المعنى لانعود إلى قريتكم بعد إخراجكم لنا منها إلا أن يشاء الله لنا بالعودة إليها وذلك بعد نصره لنا عليكم والظفر بكم .

(٤) وقيل إن التقدير «إلا أن يشاء الله أن يردكم إلى الحق فنكون جميعاً على ملَّة واحدة» .

بعد أن ذكر الإمام الألوسى هذه الآراء الأربعة قال : ولا يخفى أن ذلك مما يُضحك الثَّكلى وحقَّ له أن يقول ذلك : لأن فى هذه الآراء تكلفاً لا يتحمله المقام ولا يستسيغه العقل وسياق الآيات ومفهومها يدل على أن المراد من العود هو العود والرجوع إلى ملتهم الكافرة المشركة كما أن الضمير فى «فيها» يرجع إلى ملتهم هذه ولا يحتمل الضمير عوده إلى غير ذلك ولهذا ينبغى أن يكون التقدير كما يلى : «ما

يصح لنا وما ينبغي وما يليق أن نرجع ونعود في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا إن كانت مشيئة الله تعالى قد أرادت ذلك في حال ووقت معين للعود . . وهذا التعبير منهم دليل على اعتقادهم استحالة ذلك واستبعاد وقوعه ومما يعضد ذلك ما يلي :

١ - قولهم : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ . هذا دليل على أن اللّه تعالى علم أزلاً عدم مشيئته تعالى لعودهم إليها .

٢ - قولهم : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ فذكروا الاسم الأعظم الدال على كمال التوحيد وذكروا لفظ الربوبية الدال على الإنشاء والخلق والتربية والرحمة .

٣ - قال الزجاج : أي إلا بمشيئة الله عز وجل وقال وهذا قول أهل السُّنة .

ولكن يتأتى لنا هنا سؤالان وهما (١) على أي معنى يُحمل العود؟ (٢) على أي صورة يُفْهم الاستثناء؟ . . للرد على التساؤل الأول نورد ما ذكره ابن كثير في تفسيره قائلاً : والعود هنا بمعنى الابتداء يقال عاد إليّ من فلان مكروه أي صار وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك . لأن شعيباً ما كان على ملّتهم من قبل حتى يجوز في حقه التعبير هذا أو أن هذا من باب التغليب، أي كما غلب شعيب عليهم في الخطاب فكذلك هم غلبوا عليه في خطاب .

وللرد على التساؤل الثاني نقول : (١) قد يكون المراد من الاستثناء هنا مجيئته على وجه التسليم للّه تعالى كما في قوله تعالى : ﴿ .. وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ .. (٨٨) ﴾[هود] . (٢) أو هو من باب التعليق على المحال كقوله تعالى : ﴿ .. حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾[الأعراف]، والجمل لا يلج (٣) أو يكون الاستثناء منقطعاً .

الجملة الرابعة : ﴿ .. وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا .. (٨٩) ﴾[الأعراف] هذه الجملة ثناء على الله تعالى بأن علمه أحاط بكل شيء فهو إقرار منه بالعجز عن كل شيء وإقرار منهم أيضاً بعموم إرادته تعالى لكل شيء وسعه علمه أيضاً . . وأن الحوادث كلها بمشيئته تعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء . . ونظير ذلك قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ .. وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي

شيئًا وسع ربي كل شيء علمًا أفلا تتذكرون ﴿٨٠﴾ ﴾[الأنعام] . . فإنه عليه السلام لما رد الأمر إلى المشيئة الإلهية وهى مغيبة مجد اللّه تعالى بالانفراد بعلم الكائنات.

الجملة الخامسة : ﴿ على الله توكلنا ﴾ هذه الجملة نتيجة للجملتين السابقتين، لأن من علق حياته وكل ما يتصل به بمشيئة الله تعالى واعترف مقراً بسعة علمه تعالى لكل شيء كان لابد له إن كان عاقلاً فطنا أن يكل الأمور إلى الله تعالى ويجعل اعتماد وتوكله عليه كاملاً . . فالجملتان السابقتان وإن كانتا متضمنتان لتوكلهم على اللّه غير أنهم لم يكتفوا بالتلميح عن التصريح فأعلنوا وإمامهم فى ذلك رسولهم سيدنا شعيب فقالوا : ﴿ على الله توكلنا ﴾ أي لا نتوكل أبداً على أحد سواه وهو ما يفيده القصر البلاغى أي عليه اعتمدنا فى أن يثبتنا على الإيمان ، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله، ويتم علينا نعمته ويعصمنا من نقمته.

الجملة السادسة : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ يتضح من هذه الجملة أن المؤمنين بشعيب أعرضوا عمن كفر به من قومه إثر ظهور عتوهم وعنادهم ، حيث لم يجدوا فى قومهم أذناً صاغية ولخا قلوباً نيِّرة . . فاتجهوا إلى الله تعالى بالدعاء أن يكون الحكم بينهم وبين قومهم الذين هددوهم بالطرد من الوطن إن لم يدخلوا فى شركهم . . والمقصود من الفتح فى لغة حمير الحكم والقضاء، والتقييد بالحق لإظهار النصفة، وذهب الزجاج إلى أنه مجاز عن البيان والإظهار.

الجملة السابعة ﴿ بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ . . هذه الجملة ثناء منهم على اللّه تعالى فقد قدموا الثناء بين يدى دعائهم وختموه بالثناء فصار دعاؤهم بين ثناءين ليكون أقرب إلى القبول . . وقالوا أنت خير الفاتحين لأن حكم الله تعالى خال من الجور والحقد . . وهذه الجملة جاءت مذيِّلة لمضمون ما قبلها مقررة له وهى وإن قَلَّت كلماتها غير أنها تحمل الكثير مما يجول فى قلب قائلها، فهى لا تصدر إلا من إنسان كابد المشاهق واصطلى بنار الفتنة وعذاب الأعداء وأصناف الاضطهاد ، فهو يرفع شكراه لمن آمن به إيماناً لا تزحزحه عنه الفتن والكوارث مع مر الأعوام.

دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم وبين قومهم الكافرين ولا يكون حكمه إلا بنصر المحقين على المبطلين كما أخبرنا به تعالى فى غير موضع من كتابه المجيد.

فكأنهم على هذه الصورة طلبوا نزول العذاب ببنى وطنهم الذين كفروا بالله وبرسوله شعيب .

ما يؤخذ من هذا الدعاء

١ - مزيج الدعاء بالثناء بداية ونهاية ووسطاً من سنن الصالحين أدباً وخلقاً .

٢ - التوكل على الله والاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه من صفات الرسل والأنبياء والأولياء .

٣ - لذة الإيمان حصن منيع وحائل عظيم يمنع صاحبه عن العودة إلى الحال التى كان عليها من الكفر قبلاً .

٤ - عند استعصاء العلاج وتعذّر هداية المتمردين ينبغى الرجوع إلى اللَّه تعالى .

٥ - تسليم الأمر للَّه تعالى وتفويض الشئون إليه وخاصة عند الملمات آمر واجب محتم .

٦ - الفتح فى القرآن الكريم بمعنى القضاء والحكم وفى طلبه من الله إشارة إلى طلب النُّصرة على الأعداء .

٧ - تهديد الطغاة والظلمة لا يجدى مع أصحاب الهمم العالية والإيمان الكامل لعظيم ثقتهم بالله وتوكلهم عليه فى كل أحوالهم .

٨ - ما سهلت الحياة قط لنبى من أنبياء الله وإنما كان لكل منهم مَرَدَة وأعداء .

٩ - دائماً عاقبة العصاة وخيمة وبقدر المعصية تكون العقوبة .

١٠- المال غالباً ما يكون مصدر شر على صاحبه وعلى بيئته فالخارجون عن طاقة الرسل غالباً ما يكونون ذا مال وجاه . أ . هـ .

الفصل التاسع
دعاء سحرة فرعون

وردت أدعيتهم فى ثلاث سور من القرآن الكريم هى الأعراف وطه والشعراء.

كلف الله تعالى موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون مصر لدعوته وقومه إلى توحيد الله وطاعته بعد أن زوده بالكتاب وتسع آيات بيِّنات.. فالتقى موسى بفرعون وملئه ودعاهم إلى الله تعالى فتأبُّوا وتمرَّدوا ودارت بينه وبينهم مناقشات حادة سجلها القرآن فى أكثر من سورة حتى ضاق فرعون ذرعاً وانتهى به المطاف وهداه تفكيره إلى جمع سحرة مصر ليُبطلوا دعوة موسى ويقضوا على أساسها، وفى طريقة جمعه للسجرة روايات مختلفة نوردها ليتبين من خلالها مدى اهتمام فرعون بإبطال دعوة موسى حتى لا يؤمن به قومه فيفسد عليه بذلك مُلْكه.

١ - قيل: أعدَّهم إعداداً خاصاً لهذه المهمة قال الحسن: كان يأخذ ولدان الناس ويجبرهم على تعلم السِّحر.. واخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بنى إسرائيل فأمر أن يتعلموا السِّحر وقال: علموهم تعلياً لا يغلبهم أحد من أهل الأرض وهم من الذين آمنوا بموسى عليه السلام، وهم الذين قالوا: ﴿ **إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا** .:. ﴿٧٣﴾ ﴾[**طه**].

٢ - وقيل: كانوا معدين لكنه أكرهم حيث رُوِىَ عنهم أنهم قالوا له: أرنا موسى نائماً ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقال: ما هذا بساحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه ولكى يُمعن فرعون فى الضلال ويتلاعب بعقول شعبه استشار عظماء مجلسه وأشراف قومه قائلاً لهم: ﴿ .. **إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ** ﴿٣٤﴾ ﴾[**الشعراء**] يقصد موسى ﴿ **يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**

﴿٣٥﴾ ﴾[الشعراء] . فأجابوه بقولهم : ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[الشعراء]، فاستجاب لمشورتهم وجمع السحرة لميقات يوم معلوم، ثم قال السحرة لفرعون: ﴿ .. أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾[الشعراء] ، فرد عليهم فرعون قائلاً: ﴿ .. نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[الشعراء]، ثم التقى موسى بالسحرة وأخبرهم قائلاً له أرأيتك إن غلبتك تؤمن بى وتشهد أن ما جئت به حق، قال الساحر: لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر فوالله لئن غلبتنى لأومنن بك ولأشهدن أنك حق وفرعون ينظر إليهما، ثم قال لهما موسى: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[الشعراء] حينئذ ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الشعراء] . . . عندئذ تبدو أربعة مشاهد . . أولها : إيمان سحرة فرعون . . ثانيهما : تهديد فرعون للسحرة . . ثالثتها : رد السحرة على تهديد فرعون . . رابعها: التجاء السحرة إلى اللَّه والتُضُّرع إليه.

المشهد الأول تصوره الآيات الآتية :

﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾[الأعراف] .

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾[طه] .

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[الشعراء] .

اقتنع السحرة بأن موسى ليس ساحراً وإنما هو رسول رب العالمين؛ لأن ما صدر منه ليس سحراً لأنهم أساتذة السحر وواضعوا قوانينه ونظمه وليس فعله هذا من هذا القبيل لذلك خرُّوا ساجدين، وعبرت الآيات الثلاث عن تحركهم للسجود بالإلقاء لدلالة على أنه من هول ما رأوا وقعوا على الأرض من غير تكلف ولا إرادة منهم بسبب ما استقر فى قلوبهم من الإيمان والمعرفة بأن ما صدر عن موسى معجزة دالة على كونه رسول الله إليهم . . وسواء اعتبرنا سجودهم هذا على الحقيقة من عند

أنفسهم لعلمهم به . . أو مشاركة منهم لموسى وهارون حين رأوهما ساجدين للَّه شكوا على غلبتهم وانتصار الحق أم المراد بالسجود والإيمان والإذعان والتسليم . . ولم يكتفوا بالسجود بل قرنوه بإعلان إيمانهم برب العالمين ودفعاً لوهم فرعون أن رب العالمين ، قالوا : رب موسى وهارون لما ذكروا موسى أولاً خشوا أن يكون فى هذا التعبير ما يوهم إقرارهم بربوبية فرعون وأنهم ما خرجوا عن طوق إرادته لأن فرعون قد ربى موسى فعلاً فقالوا سداً لهذا الباب ودفعاً لهذا التصور وزيادة فى الاحتياط آمنا بـ ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ مقدمين هارون على موسى . وهذا دليل صدق إيمانهم وقبولهم عند الله يؤيد هذا ما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن جبير أن السحرة حين خروا سجداً رأوا منازلهم تبنى لهم . . وأخرج عن الأوزاعى أنه رُفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها .

المشهد : تصوره الآيات الآتية :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) ﴾ [الأعراف] .

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) ﴾ [طه] .

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) ﴾ [الشعراء] .

يلاحظ فى هذه الآيات الثلاث أنها نسبت إلى فرعون صراحة فى آية واحدة ، وفى الثنتين أُهمل إهمالاً لحقارته ، أو أنه ما ذكر لظهوره فى مقام الكفر بحيث لا ينازعه فى الغلو فيه أحد ولا تنصرف الأذهان فى مثل هذه المقالة إلى غيره .

كما أن هذه الآيات الثلاث أوضحت تعجّبه من إيمان السحرة وكيف يعلنون ذلك دون إذن منه مسبق وغاب عن رشده ذلك العتل أنه يدعى الربوبية لعله نطق بها دون

وعى لما اعتراه من هول المصيبة التى لم يكن ينتظرها أو تجرى فى مخيلته ولا أظن قال ذلك استهزاء وسخرية بالسحرة المؤمنين بدليل تخبطه فى كلامه فتارة يقول : «آمنتم به» وتارة يقول : « آمنتم له» ثم يقول للسحرة : ﴿ أنْ آذن لكُمْ إنَّ هذَا لمكْرٌ مَكرْتُمُوهُ في الْمدينة لتُخْرجُوا منْهَا أَهْلَهَا ﴾ ثم يشير إلى موسى قائلا : ﴿ إِنَّهُ لكبيرُكُمُ الَّذي عَلَّمكُمُ السِّحْرَ ﴾ فهذا الارتباك القولى دليل على اضطرابه لا استهزائه بالسَّحرة.

ثم هدد فرعون السَّحرة قائلاً ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وأطلق المفعول لتذهب النفس فيه كل مذهب، ثم فسَّره قائلاً : ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) ﴾[الأعراف] . ثم وضح طريقة الصلب التى هددهم بها فقال: ﴿ ولأُصَلِّبَنَّكُمْ في جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ ثم زاد الأمر تهديداً قائلاً : ﴿ ولَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾[طه] .

المشهد الثالث :

ماذا كان رد السحرة على تهديدات فرعون لهم؟ وهو تهديد صادر ممن يقدر على إنفاذه حيث جرت العادة والعرف بذلك وتواطأ الناس عليه وعرفوا من تاريخ فرعون وتجاربهم معه أنه يستطيع أن يفعل ذلك وأكثر لأنه القائل ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾[النازعات] ، والقائل : ﴿ .. أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) ﴾[الزخرف] .

إذاً فالسحرة لا يستبعدون أن ينفذ فيهم كل ما توعدهم به لهذا كان جوابهم خالياً من الإنكار على ما قال بل جاء فيه لون تصديق لما قال حيث قالوا : ﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) ﴾[الشعراء] . . أي لا ضرر علينا فيما ذكر من قطع الأيدى وما معه ولو قطعتنا إرباً إرباً . . أي افعل بنا ما شئت ، مثِّل بنا كما أحببت فلا حرج عليك لأنك كافر مستبد ولا جزع منا لأننا سنلقى الله على أي صورة كانت، ولعل ما توعدتنا به يمنحنا أفضل صورة يموت عليها أحباء اللَّه ألا وهى الشهادة فى سبيله ﴿ .. فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ .. (٧٢) ﴾[طه] وافعل ما بدا لك فإنما تقضى هذه الحياة الدنيا الفانية التى نحياها وسوف يكون منقلبنا إلى اللَّه فيجازينا على إيماننا خيراً وعلى كفرك عذاباً وناراً.

وليعرف الملأ من قومك وشعبك مصر كله ما كرهت منا شيئاً البتة إلا إيماننا باللَّه حين وضحت لنا آيات وجود اللَّه تعالى وظهرت براهين وحدانيته وأدلة قدرته وعظمته . . لهذا لن نؤثرك على اللَّه تعالى الذى عرفناه وآمنا به لأنك أنت عبد مثلنا يعتريك الفناء كما يعترى سواك من الخلق أما الباقى الدائم فهو الإله الذى أرسل موسى وهارون إليك بالهدى ودين الحق .

لن نؤثرك أبداً على ما جاءنا من البيانات والدلائل الواضحات، كما لا نؤثرك أبداً على الذى فطرنا وخلقنا وكفل لنا أرزاقنا بيده وحده حياتنا ومماتنا .

سهام موجهة ضد عقل فرعون وعقيدته وتفكيره، ثم استسلام منهم لأمره أن قدر اللَّه عليهم أن ينفذ فيهم وعيده، ثم عزم منهم وتصميم على المضى فى طريق النور والإيمان وإصرار أكيد منهم على عدم الرجوع إلى ملة الكفر والإشراك مهما كلفهم ذلك القتل والتمثيل بهم .

فلما كان هذا موقفه منهم وموقفهم منه غلب على ظنهم أنهم مفارقون الحياة وأن فرعون منفذ وعيده فيهم، لما تأكدوا من ذلك وصار العلم به لديهم ضرورياً التجأوا إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع آملين فيه أن يغفر لهم خطاياهم التى ارتكبوها . . ومعاصيهم التى اكتسبونا فى ظل من ادعى الألوهية .

وهم فى دعائهم هذا سلكوا أصوب الطرق وأعظم السبل فكانوا فى دعائهم مثلاً يحتذى فى الأدب وسمو الخلق وحسن التدبير وسلامة التنسيق وتعانق الكلمات فما طلبوا بادئ ذى بدء المغفرة صراحة بل طمعوا فيها تمهيداً لتحقيقها .

المشهد الرابع : أدعية سحرة فرعون :

وردت لهم ثلاث صيغ فى الدعاء فى هذا المقام :

المقام الأول :

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[الشعراء] .

بعد أن ظهر للسحرة الحق واضحاً وضاءً ، وبعد أن أعلنوها مدوية لا ضرر ولاضرار علينا ولا خوف يعترينا من توعدك لنا فلست تملك منا إلا جسداً فانياً فاصنع فيه ما شئت من قطع أيدينا وأرجلنا من خلاف واصلبنا أجمعين أياماً وشهوراً تأكلنا الحدأة والصقور فلا نبالى على أى جنب كان فى اللَّه مصرعنا ولعل ما تفعله بنا يكون تكفيراً لخطايانا ومحوا لذنوبنا فننقلب إلى ربنا طاهرين من آثامنا مبرئين من سيئاتنا بعد هذا كله قالوا مقالتهم هذه طامعين فى مغفرة الله ورحمته ظمأى لثوابه وجنته ولكن ما المراد من الطمع؟ والمراد من قولهم ﴿ **أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

لقد ذهب أبو حيان إلى القول بأن الطمع على بابه لعدم الوجود على اللَّه تعالى وقد يكون هنا الطمع بمعنى التيقن كقول إبراهيم الخليل ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴿٨٢﴾ ﴾[**الشعراء**] ، ولكنه حمل الطمع هنا على معنى الرجاء أولى لأنه اللائق بمقام الله تعالى . . ولقد تعددت الآراء فى المراد من قولهم ﴿ **أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أهمها ما يلى :

١ - أول المؤمنين بموسى ورسالته وإلهه .

٢ - أو أول المؤمنين من أتباع فرعون بموسى .

٣ - أو أول المؤمنين بغلبة عصا موسى لعصيِّنا .

٤ - أو أول المؤمنين من أهل زماننا فهو إخبار منهم مبنى على غالب الظن ولا محذور .

٥ - أو أول المؤمنين من أهل مشهد السَّحر الذى دعا إليه فرعون انتصاراً لنفسه وعقيدته .

ومن عظيم أدبهم أنهم أبرزوا إيمانهم فى صورة الشك لتنزيل الأمر المعتمد منزلة غير تلميحاً وتضرعاً للَّه تعالى، وفى ذلك هضم للنفس ومبالغة فى تحرىً الصدق وللمشاكلة أيضاً مع قولهم ﴿ **إِنَّا نَطْمَعُ** ﴾ على ما هو الظاهر فيه ويتلاءم هذا مع كسر همزة أن المفيدة للشك أم فتحها من الثقيل فسيفيد يقين إيمانهم .

لكن الزجاج أنكر القول بتأويل ﴿أن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمنِينَ﴾ بأنهم أول مؤمنى زمانهم قائلاً قد روى أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألف وهم الشرذمة القليلون الذين عناهم فرعون فى قوله ﴿ إنَّ هؤلاء لشرذمةٌ قليلون ﴿٥٤﴾ وإنَّهم لنا لغائظون ﴿٥٥﴾ ﴾[الشعراء] .

فهؤلاء السَّحرة لم يدعوا اللَّه تعالى صراحة وإنما لوَّحوا حيث أظهروا رغبتهم وميلهم وطمعهم الذى جعلوه تعليلاً ثانياً لنفى الضرِّ عنهم بعد تعليلهم الأول المشار إليه بقولهم: «منقلبون» . . فأظهروا طمعهم فى مغفرة الله لهم خطاياهم ومهدوا لذلك الطمع بأن أعلنوا أنهم كانوا أول المؤمنين بموسى ورسالته وإلهه فهم من أجل ذلك يطمعون فى مغفرة اللَّه لهم . . ولعل الحامل لهم على هذا التعريض بدل التصريح استعظامهم لما أُلُّموا به من المعاصى والسيئات وما وقعوا فيه من الشرك والضلال حيث استغلهم فرعون للتمويه على عامة الشعب فكانوا سبباً فى استخفاف فرعون لقومه وادعائه الألوهية وقوله أنا ربكم الأعلى حتى عبده الناس من دون الله فكانوا شركاء له فيما فعل وفيما ارتكب من الإثم حتى صاروا له عبيداً مقلِّدين . . فلما استعظموا مواقفهم هذه لم يجرءوا على طلب المغفرة صراحة وذلك منهم فى غاية التحفظ والتأدب والتحشم فطوبى لمثل هؤلاء الكرام .

الدعاء الثانى :

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ ﴾[طه] .

يتضح من هذا الدعاء طلبهم المغفرة صراحة وصدروه بـ «إنا» الدالة على تأكيد على طلبهم هذا وسلطوا المغفرة على خطاياهم والذى أكرهم عليه فرعون من السحر والإعداد له والتصدى به لموسى وعصاه ويده وخصُّوا فرعون بالذكر لغاية نفرتهم عنه . واعتبار «ما» موصولة منصوبة معطوفة أرجح الآراء الثلاثة التى قيلت فى شأنها كما أن أضعف الآراء القول بكونها نافية والرأى الثالث جواز كونها فى محل رفع على الابتداء والخبر مُقَّدر والتقدير ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ موضوع عنا .

ومن حسن خلقهم أن ختموا دعاءهم هذا بالثناء على الله تعالى قائلين: ﴿ والله خيرٌ وأبقىٰ ﴾.. فهو ثناء على الله وتهديد لفرعون وإنذار لقومهم أي الله خير منك عذاباً ان عصى ولعل هذه الجملة جواباً ورداً على تهديده وقوله لهم: ﴿.. النخل ولتعلمنَ أيُّنا أشدُّ عذابًا وأبقىٰ (٧١) ﴾[طه].

وفي رواية عن ابن اسحاق ومحمد بن كعب القرظي «أي الله خير لنا منك وأبقى أي أدوم بما كنت وعدتنا به ومنّيتنا».

الدعاء الثالث:

﴿ ربنا لمَّا جاءتْنا ربَّنا أفرغْ علينا صبْراً وتوفَّنا مُسْلمين (١٢٦) ﴾[الأعراف].

طلبوا من الله تعالى أن يغمرهم بالصبر ويفيضه عليهم من مفرق رأسهم إلى أخمص قدمهم وهذا ما يفيده الإفراغ وهو من أعلى درجات الصبر وطلبوا هذا النوع بالذات ليستطيعوا به مقابلة عذاب فرعون لهم وليوطدوا به نفوسهم على التصلب فى الحق وثباتهم على الإيمان ومع استعظامهم للآخرة وتحقيرهم للدنيا وتصورهم لعذاب فرعون الذى سينزله بهم رجوا اللَّه تعالى فى مثل هذه المواقف والشدائد التى تزيغ فيها الأبصار وتزول الأقدام أن يتوافهم على الإسلام وهو طلب الرسل والأنبياء حيث قال يوسف ﴿.. والآخرة توفَّني مُسلمًا وألحقْني بالصَّالحين (١٠١) ﴾[يوسف]، أي توفانا إليك حال ثبوتنا على ملة الإسلام غير محرِّفين ولا مبدلين ولا مفتونين.. ولقد كانت مهارتهم فى السحر «وإن كان شرا» سبباً فى إيمانهم حيث عرفوا الفرق بين سحرهم ومعجزات موسى التى تمثلت فى اليد والعصا وأيقنوا أن ذلك من اللَّه لا من البشر.. ومن ثم فقد يكون الشر مفتاحاً أحياناً، كما هو حال السحرة.. ولم يكتف هؤلاء السحرة المؤمنون بما قالوه سابقاً بل أرادوا وعظ فرعون وتبكيته وتنبيهه إلى مغبة ما سيئول إليه أمره فقالوا: ﴿ إنَّهُ من يأت ربَّهُ مُجْرمًا ﴾ أي كافراً ﴿ فإنَّ لهُ جهنَّم ﴾ مأوى له وسكناً جزاء كفره ﴿ لا يمُوتُ فيها ﴾ فيخرة منها ﴿ ولا يحيىٰ ﴾ فتستقر نفسه فى مقرها فطتئن ولكنها تتعلق بالحناجر منهم.. ثم عرجوا على ما يكون عليه المؤمن فى الآخرة من حالة طيبة فقالوا: ﴿ ومن يأته مؤْمنا ﴾ موحداً

لايشرك به ﴿ قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ﴾ قد عمل ما أمره به وانتهى عما نهاه الله عنه . . ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ .

وأرجح الآراء أن فرعون نفَّذ فيهم ما توعَّدهم به وتعددت أخبار السلف فى عددهم : فقال ابن عباس ٧٠ ألفاً وقيل : ١٢ وقيل : ١٥ ، ١٧ ، ١٩ ، ٣٠ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٣٠٠ ، ٩٠٠ ألف وقال ابن عباس : كان أول من صَلَبَ وأول من قطع الأيدى والأرجل من خلاف فرعون . . وقال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج كانوا فى أول النهار سَحرة وفى آخره شهداء . . وقيل : كانوا فى أول النهار سحرة فصاروا فى آخره شهداء بررة .

ما يمكن الاستفادة به من هذه الأدعية

١ – الحق والباطل فى صراع دائم .

٢ – قد يكون الشر مفتاحاً للخير أحياناً .

٣ – لا يفل الحديد إلا الحديد .

٤ – ربما كان الإيمان عن الأدلة الحسية أقوى وأعظم أثراً .

٥ – إيمان العلماء أرسخ ممن لم يتيسر لهم حظ فى العلم .

٦ – الالتزام بالصدق فضيلة عظمى .

٧ – الثبات على الحق من شيم الرجال .

٨ – يخلق الإيمان فى صاحبه القوة التى لا تهتز .

٩ – تعلم السِّحر لاجتنابه وإنقاذ الناس من شره لا حرمة فيه .

١٠ – جواز الاعتزاز بالإيمان دون غرور .

١١ – اللَّه يُمهل ولا يهمل .

١٢ – أكثر العصاة قد يتمتعون زمناً طويلاً دون أن يمسهم سوء .

١٣- مقابلة التهديد بالتهديد عند نفاذ الصبر جائز .

١٤- المحاجة على العتاة دون خوف من قوة الإيمان .

١٥- التأدب فى مقام الربوبية .

١٦- مناداة الله تعالى بأسمائه المناسبة فى الدعاء .

١٧- التوكل على الله من خير الصفات المسعفة للعبد عند الضيق .

١٨- طلب المغفرة من الله دليل على عمارة القلوب بالإيمان .

١٩- الاعتراف الفورى بالحق فضيلة ولو أدى إلى القتل .

٢٠- استجاب طلب الصبر الكثير الذى يغمر صاحبه .

٢١- مشروعية طلب الوفاء على الإسلام .

الفصل العاشر

دعاء المؤمنين بموسى عليه السلام

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[يونس].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ﴾ فمن هم هؤلاء القوم ؟ هل هم المؤمنون به من بنى إسرائيل أو من قوم فرعون وهل هم قلة أم كثرة؟ . . أرجح الآراء أن المراد بالقوم هم المؤمنين به وهم المُعبَّر عنهم بالذرية فى الآية السابقة وهى قوله تعالى ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[يونس] فالقوم هم المعنيون بالذرية وكلا اللفظين يفيد القلة ولهذا تعددت الآراء فى حقيقتهم . . فهل هم من القَبط أو من بنى إسرائيل أو منهما ؟ آراء ثلاثة .

١ – قال العوفى عن ابن عباس أن الذرِّية التى آمنت لموسى من أناس غير بنى إسرائيل من قوم فرعون يسير . . منهم : (١) امرأة فرعون. (٢) مؤمن آل فرعون. (٣) خازن فرعون. (٤) امرأة خازن فرعون.

٢ – قال الفراء : المراد من الذرِّية هنا قوم آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بنى إسرائيل.

٣ – أرجح الآراء أن المراد من الذرية هم شباب بنى إسرائيل . . وروى ذلك علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس يؤيد ذلك قول مجاهد : هم أولاد الذى أُرسل إليهم موسى من طول الزمن ومات آباؤهم . . كما اختار ابن جرير قول مجاهد لعود الضمير على أقرب المذكورين فى «قومه» على موسى لا فرعون لطول الفصل . . لهذا

ساغ لموسى عليه السلام أن يخاطبهم بلفظ «القوم» لقلّتهم ويقصد موسى عليه السلام من مقالته هذه أن يسلّموا أنفسهم للّه فيجعلوها سالمةً خالصةً لاحظَّ للدنيا ولا الشيطان . . إذ التوكل لا يكون مع التخليط بل هو الاعتماد الكامل على الذات العليّة . . ودعوة موسى لقومه بالتوكل على اللّه هى عين الصواب لما للتوكّل من المكانة السامية فى الإسلام حيث أمرنا اللّه به فى قرآنه وسُنّة نبيّه عليه الصلاة والسلام وحثّنا على التحلّى به وأظهر لنا بجلاء ثماره المحققة وفوائده الجمّة بقصص الذين اتخذوه لهم دينا وسلوكاً فقال تعالى: ﴿ .. **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ..** ﴿٣﴾ ﴾[**الطلاق**] ﴿ .. **لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً** ﴿٩﴾ ﴾[**المزمل**] . . وقرنه بالعبادة فقال: ﴿ .. **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ..** ﴿١٢٣﴾ ﴾[**هود**] كما قرنه بالإيمان فقال: ﴿ **قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ..** ﴿٢٩﴾ ﴾[**الملك**] . . وأمر المؤمنين فى كل صلاتهم أن يقولوا : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴿٥﴾ ﴾[**الفاتحة**] . . كما أوضح أن التوكل على اللّه كافٍ للعبد فى كل شئونه فقال: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ..** ﴿٣٦﴾ ﴾[**الزمر**] . .

لهذا كانت دعوة موسى لقومه بالتوكّل على اللّه تعالى مُخلصة فيها الحُبّ والوفاء والكمال والتمام . . لكن ما هدف موسى من هذه المقالة؟ لعله قصد حث هممهم ودفع ما قد ينتابهم من قلق وخوف خصوصاً وأنهم قلة ضعاف وفرعون عدوهم يملك من وسائل التنكيل بهم وإنزال أشد العذاب عليهم . . فكأن موسى بهذه المقالة يقول لهم دَعوا كل هذا واطرحوه من أذهانكم وما عليكم إلا الاعتماد والتوكل على الله تعالى وحده فهو كافيكم كل شىء لهذا استثار فيهم يقين الإيمان وحميّة الإسلام فقال: ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** ﴿٨٤﴾ ﴾[**يونس**] . . فأمرهم بالتوكل الذى وسّطه بين عقيدتهم وشريعتهم فهل هذا الأسلوب من تعليق الحكم بشرطين أم لا قيل: بكل.

فعلى القول بتكرار الشرط يكون قد شرط فى التوكّل على اللّه تعالى أمرين اثنين وهما الإيمان والإسلام، وعلى القول بعدمه، يكون المعلق بالإيمان وجوب التوكل

والمشروط بالإسلام وجود التوكل، فماذا كان موقف المؤمنين بموسى من مقالته هذه؟ لقد حكى القرآن لهم ثلاثة مواقف.

الموقف الأول: أعلنوا فيه موافقتهم التامة لموسى فى توكُّلهم على اللَّه تعالى بمنتهى الصراحة وبأسلوب بلاغى مؤكد لوقوع الملتزم به فقالوا: ﴿.. **علَى اللَّه توكَّلْنَا** .. ﴿٨٩﴾﴾[**الأعراف**]، وكأنهم بهذا القصر يقولون: يا موسى إنا على الله لا على غيره من الخلق توكلنا واعتمدنا فى حياتنا وآثروا لفظ الماضى على غيره لكمال تحقُّقه.

الموقف الثانى: هو قولهم: ﴿.. **ربَنَا لا تجْعَلْنا فتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالمين** ﴿٨٥﴾﴾[**يونس**]، و ما هى تصوُّراتهم لكونهم فتنة؟ آراء ثلاثة ذكرها المفسرون ونسبوها لقائليها هى ما يلى:

١ - روى عن أبى مجلز وأبى الضحى أنهم قالوا: أى لا تُظْفرهم بنا وتسلِّطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سُلِّطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيَفتنوا بذلك.

٢ - وقال ابن أبى نجيح وغيره عن مجاهد لا تعذبنا بأيدى آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيظنوا أنهم إنما سُلِّطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيَفتنوا بذلك.

٣ - وقال عبدالرازق أنبأنا ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد لا تُسلِّطهم علينا فيفتنوننا أي عن ديننا.

وصدروا دعائهم هذا بلفظ الربوبية المستتبعة لكمال الغفران والرحمة .. كما ذيلوه بقولهم: ﴿**لِّلْقَوْمِ الظَّالمينَ**﴾ أي لا تجعلنا فتنة لهؤلاء الظلمة الذين يضعون الأمور فى غير موضعها والقادرون بذكائهم ولسَانتهم أن يقلبوا الحقائق فيدَّعوا أن ما نحن فيه من بلاء إنما هو عقاب لنا لكذبنا وادعائنا أننا على الحق، إذ لو كنا كذلك لما فعل الله بنا هذا.. لهذا كله قدَّموا هذا الدعاء لفضله حيث تضرعوا إلى اللَّه أن يصون دينهم عن الفساد وأن يحمى عقيدتهم من الانحراف .. وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على اهتمامهم الكبير واعتنائهم العظيم بأمر الدين فوق اهتمامهم بأي شيء آخر ولو كان هذا الشيء أنفسهم.

الموقف الثالث : قولهم: ﴿ **وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** (٨٦) ﴾[**يونس**] . . أي خلِّصنا برحمة منك وإحسان وتفضُّل وكرم لا بعلمنا ولا بطاعتنا . . انقذنا من هؤلاء الذين كفروا بك ولم يؤمنوا برسلك وستروا الحق وأنكروه ، ونحن بك مؤمنون ولك موحدون ولأمرك منفذون وعلى طاعتك قائمون . . فاستجاب الله دعائهم ونْجاهم من فرعون وجنده بأن جعلهم من المغرقين .

ما يؤخذ من هذا الدعاء

١ - تكرار الدعوة إلى الله ، وعدم الملالة منها أو البأس من الوصول إلى أهدافها .

٢ - لم يؤمن بموسى فى أول الأمر إلا القليل من بنى إسرائيل وكذلك القليل من قوم فرعون .

٣ - دعا موسى قومه إلى أفضل صفة يجب على المؤمن التحلّى بها والتجمُّل ألا وهى التوكل على اللّه تعالى .

٤ - استجابة قوم موسى لما دعاهم إليه من التوكُّل والاعتماد على خالقهم دون سواه دليل صدق إيمانهم .

٥ - الرغبة فى عدم تشفِّى الغير والحث على الابتعاد عن الفتن وعن أسباب إثارتها .

٦ - كل من يثير الفتن والجدل والنقاش غير الهادف إلى الحق فهو من الظَّلمة الذين يضعون الأمور فى غير موضعها .

٧ - طلب النجاة من القوم الكافرين بالله وآياته أمرٌ مشروع ومحثوث عليه .

٨ - الاعتقاد الجازم بأن نجاة الإنسان من المخاطر إنما هو بمحض فضل الله وكرمه لا بصلاحه وتقواه .

٩ - تصدير الدعاء بما ييسّر إجابته كلفظ الربوبية أمر مستحسن .

١٠ - عند التوكل الكامل وصدق النية يجيب اللّه المضر إلى ما دعاه .

الفصل الحادى عشر

دعاء امرأة عزيز مصر

قال الله تعالى فى سورة يوسف :

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

نقاط البحث فى الآية :

(١) صلتها بما قبلها .

(٢) آراء العلماء فى قائلها .

(٣) شرح النص .

(٤) ما يؤخذ منه .

١ - صلة الآية بما قبلها :

تتصل هذه الآية بآيات سبقتها ذات صلة وثيقة بها فبعد أن ذهب الرسول إلى الملك وأخبره بتعبير يوسف لرؤياه ، طلبه الملك رَغبةً فى رؤيته ومعرفة أحواله ومالَهُ من فضل وبخاصة ما جاء فى تعبيره، فلما جاء الرسول يوسف ليُخرجه من السجن ويذهب به إلى الملك امتنع من استجابته وقال: اذهب إليه واسأله لماذا قطعت النسوة أيديهن . . ولقد أعطى يوسف عليه السلام من الصبر والأناة ما تقصر الأذهان عن إدراكه وتصوُره ولهذا ثبت فى الصحيحين من قول الرسول ﷺ :« **ولو لبثتُ فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى**» أي رسول الملك الذى دعانى للخروج من السجن ومقابلته . . ولقد كان رد الملك على سؤال يوسف أن قال: للنسوة ما شأنكن إذا راودتّن يوسف عن نفسه فأجبنه على الفور قائلات: حاشا لله ما علمنا عليه من سوء عندئذ انبرت امرأة العزيز قائلة الآن تبين الحق بانقطاعه عن الباطل، أنا راودته

عن نفسه وإنه لمن الصادقين فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المراودة إليها . . إلى هنا اتفق العلماء على أن هذا الكلام السابق قائلته امرأة العزيز .

أما قوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴾ .

٢ - اختلفت آراء المفسرين فى قائل هذه العبارة :

(١) ذهب غير واحد من المفسرين إلى أن قائل هذه العبارة يوسف . . وقال الفراء : ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلَّت القرينة الصارفة لكل منهما إلى ما يليق به . . والإشارة فى الآية إلى الحادثة الواقعة . . وقال الكشاف من ادعى أن ذلك من كلام امرأة العزيز بأن ليس له ما يوجبه إلا توهُّمه الاتصال الصورى للآيات وليس بذاك ، ثم قال الكشاف ومن أين لها أن تقول: ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي** . . ﴿٥٣﴾ ﴾[**يوسف**] ، بعدما وضح كشّية الأبلق أنها أمها يرجع إليه طموها ورمها .

ولكننا لم نعثر فى كتب التفسير الأخرى على أدلة لهم تعضّد ما ذهبوا إليه .

ولابن كثير رأيان أحدهما قوله : وهذا القول هو الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن حاتم سواه - قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن إسرائيل عن سمَّاك عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما جمع الملك النسوة . . إلخ ، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبى الهذيل والضحاك والحسن . . وأيضاً قتادة والسّدى .

(٢) أما القلة من المفسرين فقد ذهبت إلى أن هذا الكلام من كلام امرأة العزيز وهو الأرجح والأولى بالقبول بالأدلة الآتية :

(أ) أمر التعليل ظاهر فى التركيب أي قوله ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ** ﴾ لأننا لو أسندنا هذا الكلام ليوسف لكان غير ظاهر لأن علم العزيز بأن يوسف لم يقترف هذا الإثم إنما يعلم هذا عن طريق البحث والتفتيش المطلق لا خصوص تقديم يوسف على الخروج حين طلبه الملك[١] .

---

(١) روح المعانى للألوسى .

(ب) قال ابن كثير فى تفسيره ونسبه ذلك القول إلى امرأة العزيز هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة . . ومعانى الكلام وقد حكاه الماوردى فى تفسيره وانتدب لنصرة الإمام أبو العباسى بن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة: وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام .

(جـ) وكذلك يمكن الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي .. ﴿٥٤﴾ ﴾[يوسف]، على أن سياق الكلام الذى قبل هذه الآية هو خاص «بامرأة العزيز» إذ استدعاء الملك ليوسف دليل على أنه لم يكن موجوداً وقت قول الملك للنسوة ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ ﴾ .

ومن هؤلاء القلة الذين ذهبوا إلى أن هذه الجملة من قول: «امرأة العزيز» .

١ - الإمام الشوكانى فى تفسيره .

٢ - الإمام ابن كثير قال: وهذا الرأى هو الأقوى والأظهر لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ولم يكن يوسف عندهم بل أحضره الملك. [الألوسى] .

٣ - وذهب إليه الجبائى واستظهره أبو حيان فى أن ذلك من امرأة العزيز .

٤ - قال الألوسى فى تفسيره: «ومن الناس من انتصر له بأن أمر التعليل ظاهر عليه» .

٥ - امتداد الكلام واتصاله ببعض هو من أقوى الأدلة على أن ذلك الكلام من كلام امرأة العزيز .

(٣) شرح النص :

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[يوسف] .

ذلك : إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن

نفسه وإنه لمن الصادقين ﴿٥١﴾ [يوسف] . أي ذلك القول الذى قلته فى تنزيهه، وما أقررت به على نفسى بمراودته عن نفسه .

ليعلم : أي لأجل أن يعلم يوسف أنى لم أخنه فأنسب إليه ما لم يكن قد وقع منه أو يعلم زوجى أنى لم أخنه فى نفسى الأمر ولا وقع المحذور الأكبر وإنما راودت هذا الشاب مراودةً فامتنع فلهذا اعترفت ليعلم زوجى أنى بريئة .

أني لم أخنه : أي أنسب إليه ما لم يكن قد وقع منه .

بالغيب : أي حالة غيابه عنى حيث لم يكن موجوداً عند تبرئتى له واعترافى بمراودتى له عن نفسه . أو حالة غيابى عنه حيث كنت غائبة عنه وكنت مع الملك . والمعنى فى كلا التقديرين واحد .

وأن الله لا يهدى كيد الخائنين : أي أن الله لا يثبت ولا يسود ولا يدعم كيد الخائنين . أو أن الله لا يهدى الخائنين فى كيدهم حتى يتمكنوا من إيقاعه على الوجه الذى يكون به مؤثراً ودائماً .

وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء : تقول امرأة العزيز : ولست ابرئ نفسى فإن النفس تتحدث وتتمنى ولهذا راودته ، أي أن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات، وتأثيرها بالطبع ، وصعوبة قعرها وكفِّها عن ذلك .

إلا ما رحم ربى : أي إلا من رحم من النفس فعَصمها عن أن تكون أمارة بالسوء أو إلا وقت رحمة ربى وعصمته لها . . وقيل الاستثناء منقطع والمعنى : لكن رحمة ربى هى التى تكفها عن أن تكون أمَّارة بالسوء .

إن ربى غفور رحيم : تعليل لما قبلها أي أن من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم . فيغفر ما يعترى النفوس بمقتضى طباعها ومبالغ فى الرحمة فيعصمها من الجريان على موجب ذلك .

والإظهار فى مقام الإضمار مع التعرُّض لعنوان الربوبية لتربية مبادئ المغفرة والرحمة، ولعل تقديم المغفرة على الرحمة جرى على ما تعورف عليه وهو أن التخلية مُقدَّمة على التحلية .

وإذن فقد ترجح لدينا بعدما استبان لنا أن قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ من كلام امرأة العزيز وبخاصة أنه صرح بها قبل هذه الآيات فقال تعالى: ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ** ﴾ الآيات.

وبناء عليه نقول: بأن مقالة امرأة العزيز هذه نزلت منزلة الدعاء الضمنى لأنها تضمنت بعض شروط الدعاء كما أنها رمزت إلى طلب المغفرة والرحمة من الله تعالى.

فقولها: ﴿ **الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ** ﴾ اعتراف منها بأن الحق مهما طال عليه الزمن فلابد له من الغلبة على الباطل وإن بدا لكثير من الناس أنه قد غُلب على أمره لقوة الباطل وأهله وقولها ﴿ **أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ** ﴾ اعترف منها بجريمتها ومراودتها ورغبتها وتهديدها له.

وقولها: ﴿ **وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ سلوك طيب منها لإظهار براءة المتهم، وإعلان منها فى أنه كان صادقاً حينما قال: ﴿ **هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي** ﴾ فلم يكن له أدنى ذنب فيما نسبته إليه.

وقولها: ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ أي اعترافى بما سبق ذكرته ليعلم يوسف أنى لم أخنه ولم أنسب إليه الزور وقت أن سألنى الملك عن حقيقة الأمر ويوسف غائباً عنا أو ليعلم العزيز أو الملك أنى لم أرتكب فاحشة فى غيبته فمن باب أولى فى حضوره.

وقولها: ﴿ **اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴾ ثناء منها على اللَّه تعالى باتصافه بالحكمة والعدل، وفى كونه لا يثبت ولا يديم خيانة الخائنين ولا يهدى إليها.. وفى ذلك طهارة لنفسها وشكر لربها فى أنه تعالى حال بينها وبين ما تريد من الفاحشة والسوء.

وقولها: ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** .. (٥٣) ﴾ هذا وإن كان اعترافاً عنها بضعفها إلا أنه فى الحقيقة ثناء منها على الله تعالى إذ أنها تعلن أنها لا تستطيع أن تبرئ نفسها مما حصل منها، وكيف يكون ذلك واللَّه يعلم

خائنة الأعين وما تُخفى الصدور، ثم عرجت على الخصائص البشرية وأظهرت أن فيها عوامل الشر والخير وكثيراً ما تكون عوامل الشر عالية . . ولا يعصم العبد منها إلا برحمة الله تعالى وتجنيبه إياها ففى ذلك من الثناء على الله تعالى ما فيه.

وقولها: ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تأكيد الجملة وتصديرها بلفظ الربوبية الدال على كمال التربية والرعاية وتقديم التخلية على التحلية لدليل على إعلان التوبة النصوح.

فالاعتراف بالحق والإعلان عن براءة المتهم والثناء على الله بما هو له أهل فى أكثر من موضع . . ووصفه بالغفور الرحيم لهو عين السؤال والدعاء وكأنها قالت: يارب لقد اعترفت لك بكل شىء وأنت به عليم . . من صفاتك يارب المغفرة والرحمة فاغفر لى ما بدَر منى، واسترنى فيما سلف عنى، وخاصة وأنت بكل نفس عليم حيث ألهمتها فجورها وتقواها . . ولعلها صرحت بالدعاء تأدباً مع الله واستعطافاً لمراودتها ليوسف وخوفاً وخشية من الله تعالى، والله غفور رحيم.

الفصل الثانى عشر
دعاء أصحاب الكهف

قال تعالى : ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾[الكهف] .

لقد بدئت قصة أصحاب الكهف مجملة فى سورة الكهف بقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾[الكهف] . وبدئت تفصيلاً بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾[الكهف] . وانتهت بقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾[الكهف] ، وهذا الدعاء يقتضينا بحث النقاط الآتية :

١ - سبب ورود قصتهم فى القرآن. ٢ - حقيقتهم وعددهم. ٣ - طريقة إسلامهم وملخص قصتهم. ٤ - دعاؤهم. ٥ - هل استجاب الله دعاءهم؟ ٦- ما يؤخذ من هذا الدعاء.

١ - سبب ورود قصة أصحاب الكهف فى القرآن الكريم :

قال ابن كثير فى مؤلفه : «البداية والنهاية» : كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف، وخبر ذى القرنين ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة وغيره أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به . . فقالوا : سلوه عن أقوامٍ ذهبوا فى الدهور فلا يدرى ما صنعوا، وعن رجل طوّاف فى الأرض، وعن الرُّوح. . فأنزل الله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ. . ﴿٨٥﴾﴾[الإسراء]، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ . . ﴿٨٣﴾﴾[الكهف] ، وقال ههنا : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾[الكهف] ،

أي يامحمد ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة .

٢ - من هم أصحاب الكهف وما عددهم ؟ تعددت الروايات . .

أ - ذهب الطبرى وغيره من المفسرين إلى أنهم من أتباع المسيح ، وفى عددهم قال الطبرى : حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة ، عن ابن اسحاق عن عبدالله بن أبى نجيح عن مجاهد قال : لقد حدثت أنه كان على بعضهم من حداثة أسنانه وضح الورق قال ابن عباس : فكانوا كذلك فى عبادة اللّه ليلهم ونهارهم يبكون إلى الله ويستغيثونه وكانوا ثمانية نفر .

(١) مكسلمينا وكان أكبرهم وهو الذى كلَّم الملك عنهم .

(٢) محسيميلينا (٣) يمليخا (٤) مرطوس (٥) كشطوش (٦) بيروتس

(٧) دينموس (٨) بطونس قالوس .

ب- أما الجلالان فى تفسيرهما فقالا : قال ابن عباس عند قوله تعالى : ﴿ **قُل رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم** ﴾ **الآيه** أن من القليل وذكرهم سبعة وهو الأرجح .

جـ- أما ابن كثير فى البداية فقال : إن اعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم يدل على أن زمنهم متقدم على السيد المسيح . . والظاهر أنهم كانوا يعبدون الأصنام ، ثم قال عند قوله تعالى : ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ** ﴾ **الآيه** . . ذكر الله تعالى اختلاف الناس فى كميتهم فحكى ثلاثة أقوال وضعف الأولين وقرر الثالث فدل على أنه الحق إذ لو قيل غير ذلك لحكاه ، ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهاه ، ثم قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم أنه كانوا فى زمن ملك يقال له «دقياونس» وكانوا من أبناء الأكابر ، وقيل : من أبناء الملوك .

٣ - طريقة إسلامهم وملخص قصتهم :

يحكيها الطبرى باختصار موضحاً موقفهم من ملك البلاد لما دعاهم إلى عقيدته ، وما هو ذلكم الكهف ولماذا دخلوه . . وأين يقع ، وما هى عاقبة أمرهم؟؟

فيقول: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا الحكم بن بشير قال: حدثنا عمرو فى قوله: ﴿ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ كانت الفتية على دين عيسى عليه السلام وكان ملكهم كافراً وقد أخرج لهم صنماً فأبوا وقالوا: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ . . قال: فاعتزلوا عن قومهم لعبادة الله . . فقال أحدهم: إنه كان لأبى كهف يأوى فيه غنمه، فانطلقوا بنا نكنُّ فيه فدخلوه، وفُقدوا فى ذلك الزمان، فُطلبوا فقيل: دخلوا هذا الكهف فقال قومهم: لا نريد لهم عقوبة ولا عذاباً أشد من أن نردم عليهم هذا الكهف فبنوه عليهم ثم ردموه، ثم أن الله بعث عليهم ملكاً على دين عيسى ورفع ذلك البناء الذى كان ردم عليهم فقال بعضهم لبعض ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ حتى بلغ ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ فأرسلوا أحدهم يأتيهم بطعام وشراب فلما ذهب ليخرج رأى على باب الكهف شيء أنكره فأراد أن يرجع ثم مضى حتى دخل المدينة فأنكر ما رأى، ثم أخرج درهماً فنظروا إليه فأنكروه وأنكروا الدرهم وقال: من أين لك هذا ؟ هذا من ورق غير هذا الزمان واجتمعوا عليه يسألونه ، فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم وكان لقومهم لوح يكتبون فيه ما يكون . . فنظروا فى ذلك اللوح ، وسأله الملك فأخبره بأمره . . ونظروا فى الكتاب متى فُقد ، فاستبشروا به وبأصحابه وقيل له: انطلق بنا فأرنا أصحابك فانطلق وانطلق معه ليُرِيَهم فدخل قبل القوم فُضربَ على آذانهم فقال: ﴿ . .قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

ويزيد ابن كثير فى البداية على هذا بقوله: ذهب أكثر المفسرين والمؤرخين إلى أن أصحاب الكهف اجتماعهم فى يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان فنظروا بعين البصيرة وكشف اللّه عن قلوبهم حجاب الغفلة وألهمهم رشدهم فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له.

ويقال أن كل واحد منهم لما أوقع اللّه فى نفسه ما هداه إليه من التوحد انحاز عن الناس واتفق اجتماع هؤلاء الفتية.

كما قال اختلف فى محلة هذا الكهف فقال كثيرون: هو بأرض «أيلة» وقيل: «نينوى» وقيل: «بالبلقاء» ، وقيل «ببلاد الروم».

(٤) نص دعاء أصحاب الكهف:

﴿.. رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف].

قال الطبرى: لقد اختلف أهل العلم فى سبب مصير هؤلاء الفتية إلى الكهف الذى ذكره اللَّه فى كتابه.

فقال بعضهم: كان سبب ذلك أنهم كانوا مسلمين على دين عيسى وكان لهم ملك عابد وثن دعاهم إلى عبادة الأصنام فهربوا بدينهم منه خشية أن يفتنهم من دينهم أو يقتلهم فاستخفوا منه فى الكهف.. وبينما هم يتجهون إلى الكهف بأجسادهم اتجهوا إلى اللَّه بقلوبهم وأرواحهم داعين متضرِّعين مستغيثين مستنجدين.. دعوا ربهم بجملتين اثنتين فقط وهما ما يلى:

الجملة الأولى:

﴿.. رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ هم فى هذه الجملة يناشدون خالقهم بلفظ الربوبية الدال على كمال إيمانهم واعتقادهم الراسخ أن كل ما عدا الله فهو مربوب له خاضع لتربيته متمرغ فى نعمائه فهم يطلبون من الله رحمته الواسعة ، العظيمة المتنوعة إذ التنوين فيها يحمل كل هذه الأنواع ، كما أن تقديم ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ دال على الاختصاص أي رحمة مختصة مميزة من خزائن رحمتك ، ولما كان هذا كله يفيد العموم فى الرحمة ذهب الكثير من المفسرين إلى أنهم يطلبون رحمتى الدنيا والآخرة فرحمة الدنيا أهمها الأمن والرزق الحلال، ورحمة الآخرة أهمها المغفرة والرضوان.

الجملة الثانية:

﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .. لعل الواضح من هذا الجملة أن المراد من ﴿أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ هو مقارنتهم للكفار والهرب من عبادتهم التى حاول ملكهم الكافر «دقيانوس» أن يحملهم عليها جبرا .. أي يسر لنا يا ربنا طريق الفرار منه، وكل ما

يؤدى بنا إلى رضاك وما نرتفق به وننتفع بحصوله وما يذلل لنا طريق عبادتك وتوحيدك وتقديم المجرورين ﴿لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ للاهتمام بها «ومن» إما للتحريد كقولك: «رأيت منك رشدا» أو للابتداء.

وهذه الجملة أخص من الجملة السابقة إذ الرحمة عامة يندرج تحت إصلاح الأمر وتيسيره.

فقول أحدهم لجميعهم: ﴿.. فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ .. ﴿١٦﴾﴾[الكهف] يشير إلى الدعاء الأول، كما يشير إلى الثانى ﴿.. وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾[الكهف]. كما شجعهم هذا القول على الدعاء بهاتين الجملتين فقد قالها زميلهم على سبيل الرجاء المتضمن للدعاء أما هم فاستجابوا له ونطقوا بالدعاء صريحاً فسبحان من أنطقهم بأسلوبين مختلفين لفظاً متفقين معنى، بل يكاد أن يتحدا.

٥ - هل استجاب الله دعاءهم؟

نعم: لقد استجاب الله دعاءهم يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾[الكهف] وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ.. ﴿١٩﴾﴾[الكهف] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا .. ﴿٢١﴾﴾[الكهف].

فحفظهم الله من «دقيانوس» الملك وأخفاهم منه وسترهم كما حفظ لهم توحيدهم كما بعثهم بعد هذه النومة الطويلة ليتساءلوا فيما بينهم عن مدة لبثهم فى الكهف وليطّلع عليهم قومهم والمؤمنون، وليعلم الكفار أن وعد اللّه بالبعث حق وأن القادر على إنامتهم المدة الطويلة، وإبقائهم على حالهم بلا غذاء قادر على إحياء الموتى وأن الساعة آتية لا ريب فيها.. وكيف لا يستجيب الله دعاءهم وهو المثنى عليهم بقوله: ﴿ .. إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾[الكهف].. وهكذا تمتد يد الله تعالى عند الشدائد لتنقذ المؤمنين به تعالى، ولتكون عوناً وأملاً لمن دخلوا

فى دينه حديثاً ، وزجراً وردعاً لأولئك الجبابرة العُتَاة الذين يحملون الخلق على عبادتهم وعبادة معبوديهم من الأصنام والأوثان .

٦ - ما يؤخذ من هذا الدعاء :

١ - ضرورة التجاء المؤمنين المضطهدين إلى الله فوراً مع اعتقادهم الراسخ أنه لا ملجأ للصالحين إلا خالقهم .

٢ - استجابة الجميع لرغبة أحدهم فى اعتزال المجتمع وبخاصة إذا كانت الرغبة خالصة والاعتزال لوجه الله تعالى وللخير .

٣ - استمرار مكابرة اليهود للمسلمين ومحاولتهم الإيذاء بشتى الوسائل حتى بالإحراج الكلامى .

٤ - جواز سلب الله الأرواح البشرية مدة تجاوز ثلاثمائة سنة وإعادتها إلى أهلها .

٥ - مشروعية طلب الرحمة العامة بالإضافة إلى طلب النجاة من الغم والكرب .

٦ - الفرار من الكفر وأهله إذ لم يكن لدى المسلم القوة على دفع الأذى عنه .

٧ - الكلاب أكثر الحيوانات وفاءً حتى ضُرِب بها المثل فقيل : فلان أوفى من كلب قال تعالى : ﴿ .. **وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ** .. ﴿١٨﴾ ﴾[**الكهف**] .

٨ - عند الضيق يضطرب الإنسان فيفر من الطغاة إلى ملاذ غير حصين وذلك كالكهف .

٩ - لا يخلو زمان من اضطهاد الموحدين .

الفصل الثالث عشر
دعاء السيدة مريم عليها السلام

للسيدة مريم رضى الله عنها دعاءان.

الدعاء الأول : ﴿ **قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** ﴿١٨﴾ ﴾[مريم] .

هى مريم بنت عمران بن ماثان جد عيسى عليه السلام وهذا الدعاء هو امتداد قصة خلق عيسى عليه السلام والتى ابتدئت بقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ..** ﴿١٦﴾ ﴾[مريم] . . أي اذكر يا محمد للناس فى هذه الصورة قصة مريم . . واختلف فى كون مريم نبيّه أم لا فمن ذهب إلى نبوّتها قال : إرسال الملك إليها ومخاطبتها له دليل ذلك - ومن ذهب إلى عدم نبوّتها قال : إنما كلمها الملك وهو على صورة البشر .

ومعنى انتبذت : تنحّت وتباعدت . . وقال ابن قتيبة : اعتزلت وقيل : انفردت، وكلها متقاربة وسبب انتباذها .

١ - قيل : لتعبد الله سبحانه وتعالى .

٢ - وقيل : لتَطْهُر من حيضها .

وسبب اختيارها المكان الشرقى : لأن المكان الذى تشرق منه الشمس وكانوا يعظّمونه لأنه مطلع الأنوار حكى معناه ابن جرير والمراد من الحجاب : أي اتخذت حجاباً وستراً أقامته بينها وبين أهلها حتى لا يروا عبادتها ولا تطهُّرها . . وبينما هى كذلك أرسل اللّه لها جبريل وهو أصح الأقوال هولا ينهض سياق الآيات على أنه روح عيسى عليه السلام لأن الله تعالى قال : ﴿ . . **فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** ﴿١٧﴾ ﴾[مريم] ولا يتأتي ذلك إذا قلنا بأن المراد من الروح هى روح عيسى وإنما يظهر ذلك جلياً إذا فسرنا الروح بجبريل عليه السلام .

ولعل العلة فى تمثُّله فى صورة البشر لتستطيع النظر إليه ومخاطبته . . فلما رأته فى هذه الصورة وقد تكامل خلقه وخرق عليها خلوتها وحجابها ظنَّت به السوء فاستعاذت بالله منه فقالت:﴿ **قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** ﴿١٨﴾ ﴾[**مريم**] .

فالاستعاذة هى عين الدعاء إذ هى التجاء إلى اللَّه واعتماد عليه واستنجاد به فى رد الأعداء وإذهاب ما يكره المرء فهى لم تخاطب الله فى دعائها وإنما تعلق عمن مزق عليها سترها وتضرع إلى اللَّه وتلوذ به بسبب مفاجأته لها إذ لم يحدث لها مثل هذا منذ أن انتبذت مكاناً شرقياً من أهلها فلم يجرأ أحد على هتك عبادتها حتى ولو كان أقرب الناس إليها، لذا لما وقع هذا على سبيل الندرة لها أسرعت بالالتجاء إلى الله مهددة به ذلكم الذى خدش محرابها وقطع صلتها بربها فسبَّب لها الفزع والخوف فصدَّرت دعاءها بصيغة التأكيد وآثرت لفظ الرحمن على سائر أسماء الله الحسنى لاقتضاء المقام فهى بذلك تستدر الرحمة الربانية والنجدة الصمدية فى أن يحول بينها وبين ذلكم الرجل الذى فاجأها فيا هول الوحدة والانفراد ويا هو المفاجأة التى لم تخطر ببال ولم ترد فى الحسبان . . ثم صاغت بعد استعاذتها بالله منه جملة شرطية ذهبت فيها مؤلفات التفاسير مذهب شتى وهى ﴿ **إِن كُنتَ تَقِيًّا** ﴾ .

فقيل : إن كنت ممن يتقى الله ويخافه ، أو إن كنت ذلكم الرجل الصالح المسمى «تقياً» فإنى أعوذ بالله منك ولا يُتَعَوذ من تقى إلا تعجباً . . وقيل : إن كنت ذلكم الرجل الفاجر المسمى «تقيا» فإنى أعوذ بالله منك لأنه ممن يتعوذ منه .

وعلى هذه الأقوال يكون جواب الشرط منقدم وهو ﴿ **إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ** ﴾ وقيل : إنه محذوف تقديره «أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً فلا تتعرض لى» .

فاستجـــاب اللـــه استعاذتها وأنطـــق الملَك قائـــلاً : ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ** . . ﴿١٩﴾ ﴾[**مريم**] . . الذى استعذت باللَّه منه فلستُ مصدر شر ، ولا ممن يتوقع منه ما خطر ببالك من السوء، إنما جئتك لأخبرك من قِبَل الله تعالى بأنه سيهبك غلاماً طاهراً من الذنوب نامياً على النزاهة والعفة فتلكم البشرى أسوقها إليك ولست

قاصداً بك شراً، فلا تخافى فاللّه معك، فقالت للملَك متعجبة : ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾[مريم] .

عندئذ اطمأنت السيدة مريم إلى قوله حتى دنا منها فنفخ فى جيب درعها، وقيل : فى ذيلها ، وقيل : فى فمها، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت فى الحال حتى قيل : أن وضعها كان متصلاً بهذا الحمل من غير مدة والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾[مريم] أي بعيداً .

وقيل : حملت به ٦ أو ٧ أو ٨ شهور ، والمراد بالمكان القصى البعيد فقيل : هو أقصى الوادى، وقيل : أبعد مكان فى تلك الدار .

ويذكر ابن كثير[(١)] رأيه فى بوضوح فيما سبق من أقوال فيقول : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾[التحريم] ، ذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ فى جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها، ومن قال أنه نفخ فى فمها أو أن الذى كان يخاطبها هو الروح الذى ولج فيها من فمها فقوله خلاف ما يُفهم عن سياقات هذه القصة فى محالها من القرآن، فإن هذا السياق يدل على أن الذى أُرسل إليه مَلك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الفرج بل نفخ فى جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه .

(١) البداية والنهاية لابن كثير - جـ١ ، ص ٦٤ .

الدعاء الثانى

﴿ .. يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾[مريم] .

لما ألجأها المخاض إلى جذع النخلة وأل للجنس أو للعهد وشعرت بقرب الولادة، استندت إلى جذع ساق النخلة اليابسة وتعلَّقت به وكأنها طلبت شيئاً تستند عليه ويعينها على تحمَّل ما نزل بها وذلك كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق بشىء مما تجده، عندئذ جأرت بتمنِّها هذا الذى حمل أمرين :

أولهما :

أنها تمنت الموت : أي قبل إدراك هذا الوقت الذى شعرت فيه بالحمل والطَّلق والدنو من الوضع ، ولعلها تمنت ذلك مخافة أن يُظنَّ بها السوء فى دينها أو خافت على قومها الوقوع فى البهتان وسوء الظن فيها بسببها . . أو خافت أن حملها هذا سيُعبد من دون اللَّه ، يعضّد ذلك ما ذكره الأولوسى حيث قال: روى أنها سمعت نداءً، أخرج يا من يُعبد من دون اللَّه فحزنت لذلك وتمنَّت الموت .

وتمنى الموت لنحو ذلك مما لا كراهة فيه . . نعم يكره تمنّيه لضر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو غير ذلك من مشاق الدنيا ففى صحيح مسلم وغيره قال ﷺ: « **لا يتمنين أحدكم الموت لضُرّ نزل به فإن كان لابد متمنياً فليقل اللَّهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى** » .

ثم قال الألوسى : ومن ظن أن تمنيها ذلك كان لشدة الوجع فقد أساء الظن والعياذ باللَّه[١] .

---

(١) روح المعانى للألوسى .

ثانيهما :

هو رغبتها فى أنها لو كانت قبل حدوث هذا المخاض شيئاً غير ذا بال لكان ذلك أفضل بكثير مما هى عليه الآن.

والنسى : فى كلام العرب : يُطْلق على الشىء الذى من شأنه أن يُنَسى ولا يُذْكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل ومنه قول الكميت :

أتجعلنا خسراً لكلب قضاعة ولسنا بنسى فى معد ولا دخل

قال الفراء : النسى ما تُلقْيه المرأة من خرق أعلالها ، فكأن مريم تمنت أن تكون حيضة ملقاة . . والمنسى هو الشىء المتروك الذى لا يُذكر ولا يخطر ببال أحد من الناس.

فمريم فى هذا الدعاء تتمنى أحد أمرين أن اعتبرنا الواو بمعنى «أو».

أ - أي ليتنى كنت ميتةً قبل هذا الذى أنا فيه.

ب- أو ليتنى ما كنت من البشر بل مما كنت شيئاً مذكورا ذا بال.

ويجوز أن يكون المراد من تمنِّيها هذا الأمرين معاً وعليه يكون الثانى مترتب على الأول، والتقدير ليتنى متُّ قبل هذا الذى أنا فيه وصرت بالوفاة شيئاً غير ذى بال كالخرقة والحبل وعليه تكون بمعنى «صار».

فهذا التمنى من السيدة مريم ما هو إلا تضرُّع ودعاء ترفعه إلى خالقها لعله يستجيب لها.

غير أن سُنَّة الخالق جرت على أن ما وقع وأصبح فى خبر «كان» «لا يمكن رده» كذلك لا يمكن فهم تمنِّيها هذا على إرادتها له عند تلفُّظها أو بعده لأن قولها: «من قبل» لا يساعد على هذا المعنى . . وعليه نقول تمنيها هذا جرى مجرى المستحيل وخرج مخرج استغاثات الكفار عند الاحتضار والبعث ومواقف الحساب وفى النار كقولهم : ﴿ . . **يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٢٧﴾ ﴾[**الأنعام**] وكقول الكافر : ﴿ . . **الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا** ﴿٤٠﴾ ﴾[**النبأ**].

لهذا أجيب إلى غير ما طلب لاستحالة وقوع ما تمنته اطمأناناً لها ، وتسكيناً لنفسها واستقراراً لفؤادها فقال تعالى: ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾[مريم][1] .

ما يمكن استفادته من هذين الدعائين

١ - على المرء الالتجاء إلى اللّه فوراً إذا فوجىء بما يُتوقَع منه المكروه له .

٢ - اختيار أنسب أسماء الله الحسنى لما يطلبه العبد من ربه .

٣ - جواز الاستعاذة بالرجل التقى لإثارة نخوة تقواه .

٤ - جواز وصف أو تسمية الإنسان بالتقى .

٥ - جواز تمنّى الموت إذا كان فى ذلك خير .

٦ - جواز تمنّى وقوع المستحيل .

(١) فتح القدير للشوكانى .

الفصل الرابع عشر

دعاء فريق من عباد الله

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[المؤمنون].

وهذه الآية الكريمة تعليل لقول اللّه للكافرين : ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾[المؤمنون] ، رداً على قولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾[المؤمنون] وهذا صلتها بما قبلها ولكن من المراد بهذا الفريق؟؟

ذهب الجلالان فى تفسيرهما إلى القول بأن المراد بالفريق فى الآية هم المهاجرون ولم يذكر لذلك سبباً ولا سنداً مع العلم بأن على هوامشه «كتاب لباب النقول فى أسباب النزول» ، وهذا جعلنا ننسب هذا الدعاء إلى من ذُكر صريحاً فى الآية وهم فريقٌ من عباد الله تعالى وبخاصة أننا لم نعثر فى كتب التفسير على نسبة هذا الدعاء إلى معين فرأينا الأخذ بالتعميم دون التخصيص لعدم السند ولشمول العام للخاص ولا عكس.

بعد أن وبخ اللّه الكافرين الذين طلبوا الخروج من النار وزجرهم بهذا الرد القاسى، وضح لهم بعض ذنوبهم التى ارتكبوها فى الدنيا مع فريق من عباد الله حيث استهزءوا بهم وسخروا منهم حال تضرعهم واستغاثتهم باللّه فكأنه تعالى قال لهم لا أجيبكم إلى ما طلبتم من الخروج من النار لأنكم سَخرْتُم من عبادى المؤمنين بى المتَّبعين شريعتى، المُنَاجين لى بقلوبهم هوألسنتهم الطالبين المغفرة، الراجين الرَّحمة المثنين علىَّ ، المادحين لى المرددن قولهم : ﴿... رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[المؤمنين] ، ومن عظيم خُلُقُهمَ أنهم أطلقوا الإيمان ليعُمَ والمغفرة لتستوعب والرَّحمةَ لتشمل، وحَقٌ لهؤلاء الداعين بهذا الدعاء أن يَشْرفُوا بإضافتهم إلى اللّه تعالى، وأن ينعتهم بأحب صفات الخَلْق إليه حيث لم يعيِّنوا أي

الذنوب يطلبون مغفرتها وأي نوع من أنواع الرَّحمة يبغونها فكانت العموميات فى دعائهم هذا دليلاً على عمق إيمانهم ، وعظم توكُّلهم على خالقهم ومربيهم، لذا شرفوا بهذه الإضافة التى أضفت عليهم مجداً وعظمة، كما أنها عزفوا عن الدنيا وطلب مُتعها، لذا شرفوا بهذه الإضافة التى أضفت عليهم مجداً وعظمة، كما أنهم عزفوا عن الدنيا وطلب مُتعها ولم يتعرَّضوا لنعيم الجنة، كذلك بل حصروا دعاءهم فى المغفرة والرَّحمة وإعلان إيمانهم والثناء على خالقهم فاستجاب اللَّه دعاءهم قائلاً: ﴿ **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴿١١١﴾ ﴾[**المؤمنون**] . أي أنه لا فائز بحق بسعادة الدارين إلا هُمْ ومن كان على دربهم سائراً. . وهذا الإخبار الإلهى عن هذا الفريق من عباده ليرفع مكانتهم بين المؤمنين كما أن دعاءتهم هذا ليدفع المسلمين على أن يشتغلوا ما صح لهم الاشتغال دائماً بطلب المغفرة من اللَّه تعالى للمغفرة والرحمة والرضوان.

ونكتفى بهذا القدر حيث مر هذا الدعاء كثيراً واستفاض بحثه وتفسيره بما لا يدع مجالاً هنا لتكراره أو المزيد عليه.

فى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾[الفرقان].

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الفرقان].

هذان الدعاءان يعتبران من النماذج الإلهية التى ذكرها اللَّه تعالى فى كتابه الكريم ليكررها العباد ولينسجوا على منوالها . . فاللَّه جل شأنه يُعلِّم عباده المتصفين بالرَّحمة والشفقة، إذا دعوه أن يطلبوا منه صرف جهنم عنهم وأن يُدْخِل عليهم الفرح والسرور بصلاح زوجاتهم وذرياتهم، وأن يجعلهم أئمة خير ورسل سلام للمتقين.

ولكن من هم عباد الرحمن الذى أخبر الله عنهم أنهم يطلبون منه هذه الطلبات الثلاثة؟ لقد كشف اللَّه عنهم اللثام من خلال الصفات التى نعتهم بها قبل هذين الدعاءين وبعدهما والتى ابتُدئب بقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا . . ﴿٦٣﴾ ﴾[الفرقان] والتى انتهت بقوله تعالى: ﴿ . . وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الفرقان].

ولقد وصفهم الله تعالى بثلاث عشرة صفة منها الدعاءان المذكوران سابقاً وسوف نعرض لهذه الصفات عرضاً خفيفاً مع شرح هذين الدعاءين وبيان المقصود منها حسب ترتيبهما بين هذه الصفات ثم نختم بإيضاح الطريقة التى استجاب الله بها لهذين الدعاءين ثم أهم ما يمكن استنتاجه من جميع هذه الصفات بما فيها الدعاء فنقول وبالله التوفيق.

الصفة الأولى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا . . ﴿٦٣﴾ ﴾

[الفرقان]

هذا كلام مستأنف ساقه الله تعالى ثناءً ومدحاً للمتصفين بالصفات الآتية المستوجبة لرحمة الله تعالى والتى أهلت هذا الصنف من الخلق أن ينعتهم اللَّه بأحب الصفات إليه ألا وهى العبودية ، وأن يضيفهم إلى اسم من أسمائه الحسنى الذى شمل مدلوله كل الخلق تشريفاً لهم وتعظيماً . . فأول صفة امتدحهم الله تعالى بها هى السكينة والوقار إذا مشوا على الأرض . . قال ابن عباس : «هوناً بالطاعة والعفاف والتواضع» وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً «هوناً» علماً وحلماً .

الصفة الثانية : ﴿ . . وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ ﴾[الفرقان] .

قال النحاس : ليس هذا السلام من التسليم إنما هو من التَّسلُّم تقول العرب سلاماً أي تسلماً منك : أى براءةً منك . . وهو مفعول به أو مصدر لفعل محذوف .

قال مجاهد : معنى «سلاما» أي سداداً أي يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين ، وقيل هو : سلام متاركة لا خير فيها ولا شر[1] .

الصفة الثالثة : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ ﴾[الفرقان] .

قال الزجاج : من أدركه الليل فقد بات ، نام أو لم ينم ، كما يقال بات فلاناً قلقاً ولذلك عُرِفت البيتوتة بأنها إدراك الليل للمرء نام أو لم ينم .

ومعنى الآية على هذا «والذين يبيتون لربهم سُجداً على وجوههم وقياماً على أقدامهم . . ومنه قول امرئ القيس :

فبتنا قياماً عند رأس جوادنا ... يزاولنا عن نفسه ونزاوله

والمقصود من هذا هو مدحهم لتهجُّدهم ليلاً بالصلاة .

الصفة الرابعة : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾[الفرقان] . . هذه الصفة تمثل دعاءهم الأول الذى ساقه الله تعالى ضمن صفاتهم الحميدة ، أي من مكارم أخلاقهم وعظيم خلالهم ونبيل صفاتهم يطلبون من ربّهم المتكفل بهم وبأمورهم أن يصرف عنهم

(١) فتح القدير : للشوكانى .

عذاب جهنم يوم القيامة فلا يكونون من روادها ولا الداخلين إليها ولا المستحقين لها. . ووجه امتداح اللّه لهم بهذا الدعاء أنه بالرغم من اتصافهم بهذه الصفات والتزامهم بطاعة اللّه وعكوفهم على عبادته واستجابتهم لرسله فهم مع هذا مشفقون وجلون خائفون من عذابه ، وعللوا دعاءهم هذا بأمرين اثنين وهما :

١ - قولهم : ﴿ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أي دائماً وملازماً، لأن الغرام هو اللازم الدائم ومنه سُمّي الغريم لملازمته، كما يقال فلان مغرم بكذا أي ملازم له ومُولعٌ به . . وهذا معناه فى كلام العرب كما ذكره ابن الأعرابى وابن عرفه وغيرهما، ومنه قول الأعشى :

إن يعاقب يكن غراماً وأن يعط جزيلاً فإنه لا يبالى

٢ - قولهم : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾[الفرقان]، هذه الجملة إما تعليل ثان أو تعليل للتعليل الأول أي كانت جهنم غراماً لأنها ساءت مُستقراً ومقاماً . . والمخصوص بالذّم محذوف تقدره «هى» وفى معنى «مستقراً ومقاماً» رأيان :

أ - قيل: بترادفهما وإنما عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما.

ب- وقيل: بل هما مختلفان معنى، فالمستقر للعصاة فإنهم يخرجون، والمقام للكفار فإنهم يخلّدون.

ويجوز أن تكون هذه الجملة من كلام الله تعالى، كما يجوز أن تكون حكاية لكلامهم.

الصفة الخامسة:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾[الفرقان] فما هو الإسراف والإقتار والقَوام ؟؟

قال صاحب المنجد : أسرف المال بَذَله أي جاوز الحد وأفرط فيه ، والسرف تجاوز الحد والاعتدال . . قَتَرقَتْر أو قتوراً على عياله فضيّق عليهم فى النفقة، وقتَّر بالتضعيف كذلك . . القوام هو العدل والاعتدال . . وبالكسر والفتح ما يكفى الإنسان من القوت.

يقتروا : قرئ بفتح التحتية وضم الفوقية وكسرها، وبضم التحتية وكسر الفوقية ومعنى الجميع التضييق فى الإنفاق.

وقواماً : قرئ بالكسر أي كسر القاف وبفتحها قيل باتفاقهما معنى، وقيل : باختلافهما ومعنى الجميع التضييق فى الإنفاق.

وعلى الاختلاف قيل: بالكسر ما يدوم عليه الشيء ويستقر وبالفتح العدل والاستقامة قاله ثعلب. وقيل: بالكسر ما يقام به الشيء لا يفضل عنه ولا ينقص؛ وبالفتح العدل بين الشيئين. . وقيل: إن من أحسن ما قيل فى معنى هذه الآية ما يلى:

أ - أن من أنفق فى غير طاعة اللَّه فهو الإسراف . . ومن أمسك عن طاعة الله فهو الإقتار . . ومن أنفق فى طاعة اللَّه فهو القوام.

ب- قال إبراهيم النخعى القوام هو الذى لا يُجِيع ولا يعرى، ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف.

جـ- قال يزيد بن أبى حبيب : القَّوامون هم أصحاب مُحَّمد، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللَّذة ولا يلبسون ثواباً للجَمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة اللَّه، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويقيهم الحر والبرد.

د - قال أبو عبيدة : القوامون هم الذين لم يزيدوا على المعروف، ولم يبخلو كقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴿٢٩﴾﴾[**الإسراء**].

تلكم الصفات الخمس سالفة الذكر هى صفات طاعة وعبادة للَّه تعالى ساقها جل علاه فى مقام مدح هذا الصنف من عباده الذين تحلوا بها، ولما كانت التحلية مقدمة فازت هذه بسبق الذكر، ثم امتدحهم اللَّه تعالى بخلّوهم من الصفات الخبيثة التى اجتنبوها فيما يلى:

الصفة السادسة :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾[الفرقان] . . أي يوحدون اللّه ، ويخلصون له العبادة ولا يشركون به شيئاً ولا يعبدون معه رباً آخر .

الصفة السابعة :

﴿ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٦٨) ﴾[الفرقان] . . أي لا يقتلون النفس التى حرم اللّه إلا بالحق فى رِدّة أو زِنًا بعد إحصان أو قصاص .

الصفة الثامنة :

﴿ .. وَلا يَزْنُونَ .. (٦٨) ﴾[الفرقان] . .

أي لا يستحلون الفروج المحرّمة بغير نكاح ، ولا مِلْك يمين . . ثم بين اللّه تعالى جزاء من يفعل شيئاً من هذه الجرائم الثلاثة ولم يتب ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾[الفرقان] .

الصفة التاسعة :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ .. (٧٢) ﴾[الفرقان] . . ما معنى «يشهدون»؟ وما المراد من «الزور»؟

أ - إن كان يشهدون من الشهادة ففى الكلام مضاف محذوف : أي لا يشهدون شهادة الزور . . وإن كان يشهدون من الشهود والحضور كما ذهب إليه الجمهور فقد اختلفوا فى معناه :

(١) قال قتادة : لا يساعدون أهل الباطل على باطل . (٢) وقال محمد بن الحنفية لا يحضرون اللّهوا والغناء. (٣) وقال جرير ومجاهد : لا يشهدون مجالس الكذب. ثم قال الإمام الشوكانى : والأولى عدم التخصيص بنوع من أنواع الزور. بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائناً ما كان.

ب- أما الزور فقد اختلف فى المراد منه.

(١) فقال الواحدى : أكثر المفسرين على أن الزور ها هنا بمعنى الشِّرك.

(٢) وقال الزجاج : الزور فى اللغة الكذب ولا كذب فوق الشرك.

(٣) وقيل: لا يشهدون الشهادة الكاذبة.

(٤) وأخرج ابن مردوية عن ابن عباس فى قوله : ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ... (٧٢)﴾ [الفرقان] . . قال : « إن الزور كان صنماً بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا مرُّوا به مرُّوا كراماً لا ينظرون إليه»[1].

الصفة العاشرة :

﴿.. وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)﴾ [الفرقان] . . قال الحسن: اللغو المعاصى كلها . . وقيل: اللغو كل ساقط من قول أو فعل.

والمراد : والذين إذا مرُّوا بذوى اللغو مرُّوا معرضين غير ملتفتين إليهم.

الصفة الحادية عشر :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣)﴾ [الفرقان] . .

---

(١) فتح القدير للشوكانى.

تعدد تفسيرها :

١ - قال ابن قتيبة : المعنى لم يتغافلوا عنها ، كأنهم صمّ لم يسمعوها، وعُمْى لم يبصروها .

٢ - قال ابن جرير : ليس ثم خرور بل كما يقال: قعد يبكى وإن كان غير قاعد .

٣ - قال الفراء : أي لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا .

٤ - قال ابن عطية : كأن المستمع للذكر قائم، فإذا أعرض عنه كان ذلك خروراً وهو السقوط على غير نظام .

٥ - قال الكشاف : ليس بنفسى للخرور، وإنما هو إثبات له ونفى للصمم والعمى ، وأراد أن النفى متوجه إلى القيد لا إلى المقيد .

والمعنى المراد من وصفهم بهذه الآية أنهم إذا ذكروا بآيات قرآن ربهم ، ووعظوا بها لم يقعوا عليها حال كونهم صُماً وعمياناً ، ولكنهم أكبوا عليها سامعين مبصرين وانتفعوا بها لأنها لما تُليتَ عليهم وجلت قلوبهم فخرُّوا سُجَّداً وبكياً .

الصفة الثانية عشر :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[**الفرقان**] . .

هذه الصفة تمثل دعاءهم الثانى الوارد ضمن صفات عباد الرحمن التى امتدحهم اللَّه تعالى بها و«من» للابتداء أو البيان ﴿ **ذُرِّيَّاتِنَا** ﴾ قرئت بالجمع والإفراد فمن قرأها بالجمع نافع وابن كثير وابن عباس والحسن وممن قرأها بالإفراد أبو عمرو وحمزة والكسائى وطلحة وعيسى . . ولفظ الذرية يقع على الجمع كما فى قوله تعالى: ﴿ . . **ذُرِّيَّةً ضِعَافًا** . . ﴿٩﴾ ﴾[**النساء**] . . كما يقع على المفرد كقوله تعالى ﴿ . . **ذُرِّيَّةً** طَيِّبَةً . . ﴿٣٨﴾ ﴾[**آل عمران**] أما قرة الأعين فقد قال المفضل فى قرة العين ثلاثة أقوال هى ما يلى :

١ - برْد دَمْعَها لأنه دليل السرور والضحك كما أن حرّه دليل الحزن والغم .

٢ – نومها لأنه يكون مع فراغ الخاطر وذهاب الحزن.

٣- حصول الرضا.

فهم صدَّروا دعاءهم بلفظ الربوبية ، وطلبوا من اللَّه أن يُدخل عليهم السرور والفرح بصلاح زوجاتهم وذارياتهم ومن جميل خلقهم أن طلبوا ذلك على صورة الهبة، ومما يعضد ذلك ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴿٧٤﴾ ﴾[الفرقان] . قال : يعنون من يعمل بالطاعة فتقرّ به أعيننا فى الدنيا والآخرة.

الصفة الثالثة عشر :

﴿ ... وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الفرقان] . .

لماذا قالوا إماماً بالإفراد دون الجمع ؟ وما المقصود من هذا الدعاء؟ وما الذى يُستَدل به عليه؟

أ – لعلهم آثروا الإفراد على الجمع لأحد الوجوه الآتية :

١ – لإرادة الجنس كقوله تعالى ﴿ .. ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. ﴿٥﴾ ﴾[الحج] .

٢ – قال الفراء: قال «إماما» ولم يقولوا «أئمة» كما قيل عن الاثنين ﴿ .. إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾[طه] يعنى أنه من الواحد الذى أُريد به الجمع.

٣ – قال الأخفش : الإمام جمع أم من أَمَّ يؤم جُمع على فعال نحو صاحب وصحاب وقائم وقيام.

٤ – قيل : إن «إماماً» مصدر يقال أَمّ فلان فلاناً إماماً مثل الصيام والقيام.

٥ – قال القفال : وعندى أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وجد كأنه قيل اجعلنا حُجَّة للمتقين ، ومثله البِّينة يقال: هؤلاء بينة فلان.

ب- أما المقصود من هذا الدعاء فقد تعددت فيه الآراء.

١ - قيل : إن هذا من كلام المقلوب والمعنى «واجعل المتقين لنا إماماً» به قال مجاهد .

٢ - قيل : إن هذا الدعاء صادر عنهم بطريق الإفراد ، وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء هى «واجعلنى للمتقين إمام» ولكنها حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير لقصد الإيجاز كقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴿٥١﴾ ﴾[**المؤمنون**] وفى هذا إبقاء «إماماً على حاله» ومثل ما فى الآية قول الشاعر :

يا عاذلاتى لا تزدن ملامتى   إن العواذل ليس لى بأمين

أى أمناء .

٣ - قيل : أرادوا اجعل كل واحد منا إمام .

٤ - قيل : أرادوا اجعلنا إماماً واحداً لاتحاد كلمتنا .

قال النيسابورى : قيل إن فى الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تُطلب ويرغب فيها . . ولكن الشوكانى قال : والأقرب أنهم سألوا اللَّه أن يبلِّغهم فى الطاعة مبلغ الذى يُشار إليهم ويقتدى بهم .

وقد سبق أن دعا بهذا الدعاء إبراهيم عليه السلام حينما قال : ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي . .** ﴿١٢٤﴾ ﴾[**البقرة**] .

أي اجعلنا أئمة هدى يهتدى بنا ولا تجعلنا أئمة ضلال لأنه قال لأهل السعادة ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا . .** ﴿٧٣﴾ ﴾[**الأنبياء**] ، وقال لأهل الشقاوة : ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ . .** ﴿٤١﴾ ﴾[**القصص**] .

هل استجاب الله دعاء عباد الرحمن هذا ؟ نعم .

قال الله تعالى فى بيان استجابته دعائهم : ﴿ **أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا** ﴿٧٥﴾ **خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴿٧٦﴾ ﴾[**الفرقان**] .

فالإشارة إلى المتصفين بتلك الصفات سالفة الذكر مبتدأ وخبره ما بعده والجملة مستأنفة . . وقيل : إن الإشارة وما بعدها خبر لقوله تعالى : ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ** ﴾ كذا قال الزجاج وتتضح استجابة هذا الدعاء بالأمور الآتية :

أ - الغرفة أي ينالون الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها وهى المعبر عنها فى الآية بالغرفة . . أو ينالون الجنة كما قال الضحاك .

ب- ﴿ . . **يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا** (٧٥) ﴾ [**الفرقان**] .

التحية : قيل : الدعاء لهم بطول الحياة، وقيل : هى بمعنى السلام، وقيل : هى المُلْك العظيم . السلام : قيل : الدعاء لهم بالسلامة من الآفات .

وقيل : يُحيِّى بعضهم بعضا ويرسل إليهم الرب بالسلام .

وقيل : إن الملائكة تحيِّيهم وتسلِّم عليهم .

وقيل : إن الظاهر أن هذه التحية والسلام من اللّه تعالى .

جـ- خالدين فيها : « أى مقيمين فيها من غير موت» .

د - ﴿ **حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** ﴾ أي حسنت الغرفة مستقراً يستقرون فيه ومقاماً يقيمون به، وهى فى مقابلة ﴿ **إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** (٦٦) ﴾ [**الفرقان**] .

أهم ما يؤخذ من هذا الدعاء

١ - استحباب طلب العبد من ربه أن يجعل زوجاته وذرياته مصدر سعادته فى الدارين وذلك بفعل الطاعات .

٢ - طلب الرئاسة الدينية أمر مشروع ومرغوب فيه عقلاً وشرعاً ولا غبار عليه .

٣ - كون هذين الدعاءين من صفات العباد الذين يرجون رحمة الله تعالى .

٤ - من أهم الصفات الجالبة لرحمة الله تعالى للعباد تلكم الثلاث عشرة صفة سالفة الذكر .

٥ - من رحمة الله تعالى بعباده تبديله سيئاتهم بالحسنات .

٦ - بيان فظاعة جهنم بدليل ﴿ **جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا** (٦٥) ﴾ [**الفرقان**] ، ﴿ **إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** (٦٦) ﴾ [**الفرقان**] .

الفصل الخامس عشر

دعاء بلقيس ملكة سبأ

﴿ .. قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[النمل] .

هذا الدعاء متصل بما قبله من الآيات اتصالاً وثيقاً إذ هو من كلام بلقيس ملكة سبأ، وسبأ هذه مملكة باليمن جرى بينها وبين رسول الله سليمان عليه الصلاة والسلام ما قصته علينا سورة النمل، حتى قال الذى عنده علم الكتاب أنا آتيك به (أى عرشها) قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رأى سليمان عرش بلقيس قد استقر بين يديه قال: نكِّروا لها عرشها ننظر أتهتدى إليه وتعرفه أنه عرشها أم تكون من الذين لا يهتدون إليه ولا يعرفونه فلما وصلت إلى سليمان قال لها مشيراً إلى عرشها أمثل هذا يكون عرشك فردت عليه قائلة «كأنه هو» ثم أعد لها سليمان مسطحاً من الزجاج تحت ماء عذب. . قائلاً لها : ادخلى هذا الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها وقال لها سليمان: إنه صرح ممرد من قوارير وفى غضون ذلك دعاها سليمان إلى الإيمان باللَّه وتوحيده وتصديق رسالته . . فما كان منها (وقد رأيت من سليمان ما رأت منذ أن أرسل إليها كتابه حتى وافته» . . إلا أن اعترفت بذنبها وظلمها لنفسها فأعلنت إسلامها وانقادت إلى ربها . . ثم أثنت عليه تعالى بما هو أهل له حيث أقرت بأنه رب العالمين وخالق الكون ومدبر الأمر . . فصدَّرت دعاءها بلفظ الربوبية أملاً فى القبول ورغبةً فى حصول المأمور بعد أن لمست المعجزات الباهرات والآيات الواضحات على وجود الإله الفرد والرسول الفذ.

ثم اشتمل دعاؤها على جمل ثلاث :

الجملة الأولى : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ اعتراف منها بأنها أذنبت فى سنى عمرها الماضية، حيث عبدت شمساً لا تعقل ولا تدبر أمراً ولا تضر ولا تنفع . .

فعرَضت نفسها للهلاك وذاك ظلمها، حيث وضعت العبادة فى غير موضعها . . وضعت نفسها فى مكان غير لائق بها.

الجملة الثانية : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ فهى تعلن أنها أعلنت إسلامها وانقيادها وآمنت وأقرت واعترفت . . ولعل هذه المعيّة تفيد صدقها فى إقرارها ورغبتها فى أن تكون مع سليمان فى الدارين.

الجملة الثالثة : ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي الذى هو رب العالمين أى فاطر ما سواه وخالقه هذه الجملة وإن كانت وطيدة الصلة بما قبلها إلا أن الثناء فيها على الله تعالى واضح جلى . . فهذا الاعتراف بالذنب وإعلان الإسلام والإقرار بالربوبية الكاملة إنما هو شاهد صدق على طلبها من اللَّه تعالى أن يغفر لها ما سلف من ذنبها وأن يجعلها عنده من الصالحات التائبات المؤمنات لكنها لم تفصح عنه ولم تصرح به لما تحلت به من مكارم الأخلاق ومن الأدب الجم والسلوك المهذب والإيمان الذى وقر فى القلب وصدقه العمل . . لهذا تركت نفسها وحالها بين يدى مشيئة ربها إن شاء عفا عنها وغفر فذلك منه فضل وكرم . . وإن شاء لا فذلك منه عدل وحكمة . . لكنه القائل ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. لذا قبل توبتها ، وأزال حوبتها فكانت فى عداد المؤمنات الصالحات.

ما يؤخذ من هذا الدعاء.

١ - ما أجمل الاعتراف بالخطأ لأنه طريق الصواب.

٢ - من أوبها اعترفت أنها بعبادة غير اللَّه إنما هى ظلمت نفسها وما حرمت اللَّه من شىء وما نسبت إليه أن ذلك بسبب مشيئته.

٣ - إعلان إسلامها بمعيّة سليمان شاهدٌ على أنها أسلمت الإسلام الذى أسلمه سليمان للَّه مرسله.

٤ - أثنت على الله فقالت : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

٥ - فاستجاب الله دعاءها وقبل توبتها . . فكانت فى عداد المؤمنات الصالحات.

دعاء امرأة فرعون

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾[التحريم].

بعد أن أمر الله تعالى نبيّه محمداً ، بمجاهدة الكافرين والمنافقين والغلظة عليهم وأعلمه بأن مأواهم جهنم وبئس المصير ، ضرب مثلين للانحراف الذى قد ينشأ فى بيت الصلاح والطُهر ، وللإيمان الذى قد ينشأ فى بيت الكفر والإشراك ولعل الحكمة الإلهية الكريمة من ضرب هذين المثلين لبيان أن الهداية بيد اللّه وحده لا بيد غيره من الخلق ولإيضاح أن المرء رهن عمله وقوله اعتقاده ، فلا تظلم نفس شيئاً ولا تزر وازرةً وزر أخرى . . فها هى امرأة نوح وامرأة لوط فى بيت النبوة والرسالة كانت الأولى تنعت زوجها للناس بالجنون، وكانت الثانية تُخبر أهل السوء بأضياف زوجها للفاحشة، فهل نفعهما كونهما تحت عبدين من عباد الله صالحين ورسولين كريمين؟ اللَّهم لا، وهل ضرَّ امرأة فرعون كُفْر زوجها وادعائه الألوهية ؟ هل ضرها فعله القبيح هذا حينما أعلنت إيمانها واستجابت لدعوة الله فأقبلت عليه مؤمنة ومصدقة وتائبة؟ . . اللهم لا؛ وكأن الله تعالى يقول: يا محمد لقد ضربنا لك هذين المثلين لتعلم أن مثلك مع قومك على هذا الدرب لا يحيد . . وحقيقة المثل هى إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها فى الغاية . . والهدف المقصود منه فى هذا المقام بيان أن المؤمنين لا تضُرهم مخالطة الكافرين خصوصاً إذا كانوا فى حاجة إليهم كما قال تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾[آل عمران] . .

ولقد قال قتادة فى هذه المناسبة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم فواللّه ما ضر امرأته كفر زوجها، حيث أطاعت ربها ليعلموا أن اللّه تعالى حكَمٌ عدل لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره .

ولكن ما هى الأسباب التى دعت امرأة فرعون للإيمان باللَّه وبرسالة موسى عليه السلام . . ؟ روايتان فى ذلك .

الرواية الأولى : قال أبو جعفر الرازى :عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى بيان سبب إيمان «آسية بنت مزاحم امرأة فرعون» قال كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوقع المشط من يدها فقالت: تعس من كفر باللَّه فقالت لها ابنة فرعون: ولك رب غير أبى ؟ قالت : نعم، ربى ورب أبيك ورب كل شىء . . اللَّه . . وإياه أعبد . . فعذبها فرعون وأوتد لها أوتاداً فشد يديها ورجليها وأرسل عليها الحيَّات فكانت كذلك فأتى عليها يوماً، فقال: ما أنت منتهيه؟ فقالت له : ربى وربك ورب كل شىء اللَّه، فقال لها : إنى ذابح ابنك فى فيك إن لم تفعلى. فقالت له : افعل ما أنت قاض فذبح ابنها فى فيها . . وإن روح ابنها بشرَّها فقال لها : ابشرى يا أُمَّه فإن لك عند اللَّه من الثواب كذا وكذا فصبرت، ثم أتى عليها فرعون يوم آخر فقال لها : مثل ذلك، فقالت له مثل ذلك، فذبح ابنها الآخر فى فيها فبشرها روحه أيضاً وقال لها : اصبرى يا أُمَّه فإن لك عند اللَّه من الثواب كذا وكذا . قال وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنت امرأة فرعون وقبل اللَّه روح امرأة خازن فرعون، وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها فى الجنة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيماناً ويقيناً وتصديقاً، فأطلع الله فرعون على إيمانها فقال للملأ ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها : فقال لهم : إنها تعبد غيرى . فقالوا له : اقتلها فأوتد لها أوتاداً فشد يديها ورجليها فدعت آسية ربها فقال: ﴿ **رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ** ﴾ فوافق ذلك حضور فرعون فضحكت حين رأت بيتها فى الجنة فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها؟ إنا نعذبها وهى تضحك فقبض الله روحها فى الجنة رضى الله عنها[1] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

الرواية الثانية : روى ابن كثير فى تفسيره أن ابن جرير قال: حدثنى يعقوب ابن إبراهيم حدثنا ابن علية عن هشام الدستوائى حدثنا القاسم بن أبى بزة قال: كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال غلب موسى وهارون فتقول آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فهى امرأتى ، فلما آتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها فى الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح.

وقال ابن جرير : حدثنا إسماعيل بن حفص الأيلى حدثنا محمد بن جعفر عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن سليمان قال: كانت امرأة فرعون تعذب فى الشمس فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها فى الجنة[1].

فالروايتان متفقتان على أن دعاءها ﴿ .. **رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** (١١) ﴾[**التحريم**] . . إنما كان أثناء تعذيبها على يد فرعون وزبانيته . . فصدَّرت دعاءها بلفظ الربوبية تضرعاً واستعطافاً فكأنها تقول: يا من ربيت الخلق وأنا منهم وكلأتهم بعين رعايتك وعظيم كفالتك وعميم خيراتك أن تجيبنى لما سألتك وأنا فى أشد الضيق كما ترى وفى أحلك الساعات كما تبصر فأنت ربى.

ثم بعد هذا التصدير الجميل الذى ينم عن الإيمان والخُلُق الكريم والاعتراف بصاحب الفضل ذكرت أمنياتها الثلاث وهى ما يلى:

الأمنية الأولى : ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**﴾ .

قولها :(ابن) يفيد أن الجنة بما حوت ليست موجودة وهذا يخالف نصوص الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالةعلى وجود الجنة من الأذل بكامل مرافقها ونعيمها . . ولهذا نرى صرف فعل الدعاء هذا عن ظاهره كما نرجح أن يكون قصدها «خُصَّنى يا رب ببيت لى بالقرب من رحمتك أو فى أعلى درجات المقربين أو فى مكان لا يتصرف فيه إلا بإذنك فى جنتك التى لا سلطان لأحد فيها البتة إلا لك» .

ولكن للمرء أن يتساءل لماذا طلبت بيتاً ولم تطلب قصراً ولا ضيعة ولا عزبة؟

والحال أن خيرات الله كثيرة، ونعمه وفيرة لا تُعَد ولا تُحْصَى . . وأنها أي امرأة فرعون الجديرة بكل خير وسعة . . ثم هى آمنت عن اعتقاد جازم راسخ بأن اللَّه بيده كل شيء وأن خزائنه لا تفنى فكيف ساغ لها أن تطلب هذا الطلب المتواضع والبيت إذا أُطلق أريد به فى العربية ما يُبات فيه أي مكان البيتوتة وهذا مهما اتسع فهو محدود كما أنه غير لائق بكرم اللَّه وعظيم خيراته وبخاصة لمن قاسوا الأمرّين فى سبيل العقيدة ودين اللَّه.

نقول: والله أعلم بحقيقة ما هدفت إليه من وراء هذا الطلب وهو البيت لعلها قالت ذلك من باب هضم النفس حيث أنها تعتقد أنها لا تستحق ذلك بعملها بل بفضل الله أو لعلها قالت ذلك من باب القناعة، وهى كنز لا يفنى.

أو قالت ذلك للدلالة على أن الحجرة الواحدة وهى ما أعدت للنوم عند اللَّه تنساوى كل ما هى فيه من القصور والردهات والصالات والحجرات والحدائق والبساتين.

فكأنها تقول: يا رب امنحنى حجرة واحدة فى جنتك فهى خيْرٌ لى من كل ما أنا فيه لأن حجرتك دليل على رضائك كما أن عطائك باق لا يزول ولا يفنى أما ما أنا فيه من نعيم ممزوج ومحاط بالكفر والإلحاد فكأنه سم الخياط مع اتساعه.

الأمنية الثانية: ونجنى من فرعون وعمله:

كان يكفيها أن تطلب النجاة من فرعون أو عمله لأن كلا منهما لازم للآخر ولكن مثل هذا المقام لا يُغْنى فيه لازم عن ملزوم، كما لا يحسن فيه الإيجاز والاقتضاب بل تفصيلها هذا دل على أمور عدة أهمها أن ذات فرعون بعينها بغض النظر عما صدر عنها من عمَل هى شر محض وكيف لا تكون الذات الجائزة المنكرة للذات الواجبة شرّاً محضاً حتى أن السماء والأرض تلعنانها وكل ما خلق اللَّه يذمها. . كذلك عمل فرعون بقطع النظر عن صدوره منه فهو شرُّ محض . . لهذا طلبت النجاة من ذات فرعون ومن ذات عمله فإذا صحَّ لها أن تطلب النجاة من ذات

فرعون، فمن باب أولى أن تطلب النجاة من عمله لأن الذات الخبيثة تكثر أعمالها السيئة باضطراد.

وأخرج وكيع فى الغرر عن ابن عباس فى قوله ﴿ **وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ** ﴾ قال: من جماعته.

الأمنية الثالثة : ﴿ **وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ من هم القوم الظالمون ؟

قال الكلبى : هم أهل مصر – وقال مقاتل : هم القبط.

ولا نرى فرقاً بين الرأيين ففى صحاح اللغة أن القبط بوزن السبط أهل مصر وهم بنكها أي أهلها . . وكان الترتيب الطبيعى لهذه الأمنيات الثلاث أن تقول آسية امرأة فرعون : « رب نجنى من القوم الظالمين ونجنى من فرعون وعمله وابن لى بيتاً فى الجنة» لأن التخلية مُقدَّمة على التحلية ودفع الضرّ مقدّم على جلب الخير . . فلماذا عدلت عن هذا الترتيب الطبيعى إلى ما نطقت به ؟ نقول : لعل رغبتها المُلحَّة فى أن تكون بالقرب من اللّه أنستها العذاب الذى هى فيه من فرعون وقومه ولهذا قدَّمت ما رأته فى نظرها أحسن وأولى وأرجح . . وهو فى الحقيقة كذلك فالقرب من اللّه تعالى يُنسى العبد كل ما سواه جل شأنه.

ولقد استجاب اللّه هذا الدعاء المخلص الذى جاش بخلد آسيا حتى نطق به لسانها . . يقول الشوكانى فى تفسيره : أخرج عبدبن حميد عن أبى خريرة : أن فرعون وتَّد لامرأته أربعة أوتاد وأضجعها على ظهرها وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها إلى السماء فقالت : ﴿ .. **رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ** .. (١١) ﴾ إلى قوله : ﴿ **مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ . . ففرج اللّه لها عن بيتها فى الجنة فرأته.

وقال أيضاً : أخرج أحمد والطبرانى والحاكم وصحَّحه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «**أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص اللّه علينا من خبرها فى القرآن قالت :﴿ رَبِّ ابْنِ ﴾ الآية** ».

وقال أيضاً : وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال « **كَمُل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد ، وأن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** » .

ما يمكن استنتاجه من دعاء امرأة فرعون وملابساته رضى الله عنها

١ - اختيار الجار قبل الدار قال العلماء اختارت امرأة فرعون الرب قبل البيت فقالت «عندك» .

٢- ضرب الأمثال للحث على اكتساب الفضائل وتثبيتها فى النفوس لتكون قدوة حسنة وأمر مشروع محبوب .

٣ - الثبات على الحق والصبر فى الشدة نتائجه محمودة العواقب مأمونة النتائج .

٤ - صولات الكفر وعمل الاستبداد ، لا تضر المؤمن باللَّه كما لم تُضرَ امرأة فرعون بأعتى الكفار .

٥ - أول من صَلب فرعون مصر وأول من وتَّد الأوتاد هو أيضاً .

٦ - اضطراد زيادة الظلم فى الكافر والظالم ليس دليل الاستحسان بل هو الاستدراج بعينه .

٧ - كما أن فى الرجال صبراً وتحملاً وكمالاً فكذلك الشأن فى النساء غير أنه قليل بل نادر إذا قيس بالرجال .

٨ - يجمل بالداعى أن يصدر دعاءه بلفظ «الرب» ليكون أقرب إلى الاستجابة .

٩ - مخالفة الترتيب الطبيعى وتقديم التحلية على التخلية أمر مقبول إذا اقتضته المبررات .

١٠- طلب الشهادة ولقاء اللَّه ليس يأساً من الحياة أو هروباً من البلاء بل هو دليل حب فى اللَّه عميق .

١١- إذا أذن اللّه بالإجابة أذن بالدعاء فإذا وُفِّقَ العبد إلى الدعاء كانت معه الإجابة.

١٢- قد يكون مصدر الشر والكفر سبباً فى الإيمان ومحرِّضاً عليه ودافعاً إليه كحال آسية مع فرعون.

١٣- قد يكون مصدر الخير والفضيلة سبباً فى الانحراف والمعصية والتحريض عليه كحال امرأتى نوح ولوط.

١٤- قد لا يُكْتفَى بالإيجاز فى مقام التضرّع إذ بناء البيت فى الجنة كاف ومنجٍ من عذاب فرعون وقومه.

١٥- عند مناشدة الأحبة ومناجاتهم يحسن الأطناب وإطالة الحديث.

١٦- آسية بنت مزاحم امرأة فرعون من خير نساء أهل الجنة كما أخبر المصطفى ﷺ.

١٧- جبروت الظَلَمة لا يستطيع زحزحة المؤمن قيد أنملة عن إيمانه.

الفصل السادس عشر
دعاء الجن الصالح

ورد فى القرآن الكريم فى سورتى الأحقاف والجن آيات تحمل فى طياتها لهذا الصنف من الجن دعاءًا ضمنيا . . ففى سورة الأحقاف يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾[**الأحقاف**] .

وفى سورة الجن يقول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) ﴾[**الجن**] .

النصف الأول من سورة الجن والآيات الأربع من سورة الأحقاف والتى أولها ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ ﴾ وآخرها ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ كلها بشأن مناسبة واحدة . . وهى استماع بعض الجن لآيات من القرآن بصوت الرسول ﷺ فآمنوا ورجعوا إلى قومهم مبشِّرين ومنذرين ويمكن من خلال توضيح النقاط الآتية تفسير الآيات سالفة الذكر وبيان ما جاء فيها من دعاء .

نقاط هذا البحث :

(١) سبب النزول . (٢) من هم هؤلاء النفر من الجن وما عددهم؟

(٣) ما هى نتيجة سماعهم لما قرأه الرسول من القرآن؟

(٤) ما هو دعاؤهم؟ (٥) مصير الجن الصالح فى الآخرة .

(١) سبب النزول :

قال صاحب كتاب «لباب النقول فى أسباب النزول» : أخرج البخارى والترمذى وغيرهما عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ولكنه انطلق فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب فرجعوا إلى قومهم فقالوا: ما هذا إلا لشىء قد حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا هذا الذى حدث فانطلقوا فانصرف النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة يصلّى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا واللّه الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجباً .

فأنزل الله على نبيه ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ** ﴾ فوحى الله تعالى لنبيه محمد بذلك دليل أنه ما رأى هؤلاء النفر من الجن ولا علم بتواجدهم عند صلاته الفجر بصحابته ولا قصد القراءة عليهم حين سمعوه يدل على ذلك دلالة واضحة قول الله تعالى فى سورة الأحقاف ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ . أى وجهناهم إليك وأملناهم ليسمعوا ما تتلو من آيات القرآن فى صلاة الفجر . . ومثل هذه الرواية فى مضمونها رواها الإمام الشوكانى فى تفسيره مع تصرف قليل جداً فى الألفاظ عن أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس .

وفى لباب النقول قال صاحبه : وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن مسعود قال: إن الجن هبطوا على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا: أنصتوا وكانوا تسعة أحدهم زوبعة فأنزل الله : ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ** ﴾ إلى قوله ﴿ **ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

(٢) من هم هؤلاء النفر من الجن وما عددهم ؟

ذكر الجلالان فى تفسيرهما أن هذا النفر من الجن نصيبين أو جن نينوى وكانوا سبعة أو تسعة . . وفى لباب النقول فى أسباب النزول أنهم تسعة وكان أحدهم يُسمى

زوبعة . . وقال أخـرج ابن الجوزى فى كتاب صفـوة الصفـوة بسنده عن سهـل بن عبدالله قال : كنت فى ناحية ديار عاد إذ رأيت مدينة من حجر منقور فى وسطها قصر من حجارة تأويه الجن ، فدخلت فإذا شيخٌ عظيم الخَلْق يُصلّى نحو الكعبة وعليه جبة صوف فيها طراوة فلم أتعجب من عِظَمْ خلْقته كتعجبى من طراوة جُبّته، فسلمت عليه فرد عليَّ السلام وقال: يا سهل إن الأبدان لا تخلق الثياب وإنما تخلقها روائح الذنوب ومطاعم السحت وإن هذه الجبة على منذ سبعمائة سنة لقيت فيها عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام فآمنت بهما، فقلت له: ومن أنت؟ قال: من الذين نزلت فيهم ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾[الجن].

وقال عطاء هؤلاء النفر من الجن الذين استمعوا إلى الرسول وأسلموا كانوا من اليهود . . وقول عطاء هذا يحتمل أحد أمرين :

(١) إما أن اللَّه تعالى أرسل إلى الجن رُسُلاً قبل محمد ﷺ.

(٢) وإما أن يكون مراده من قوله: «وكانوا من اليهود» أي على دين اليهود من غير أن تكون الدعوة موجَّهة إليهم من رسل اليهود فهم دخلوا فى الديانة اليهودية والمسيحية من غير دعوتهم وإنما برغبتهم.

وهذا الرأى أولى بالقبول لعدة أدلة منها :

(١) أنه لم يؤثر فى التفسير أو العلم أن الرسل الذين كانوا قبل المصطفى أُرسل بعضهم إلى الجن ، أما تسخير سليمان للجن فلا يلزم أن يكونوا مؤمنين بسليمان وذلك كالمسلم الذى يستخدم مَنْ على غير عقيدته.

(٢) قال قتادة : لم يبعث اللَّه نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ.

(٣) قال الجن فى سورة الجن : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) ﴾[الجن] ، قال المفسرون: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ ﴾ أي بعد استماع القرآن . . فيُفَهم من هذا أنهم كانوا جميعاً قبل سماع القرآن كفارا.

ولا يمكن القول بأن منهم اليهودى والمسيحى قبل سماعهم المصطفى إلا بأحد طريقين :

(١) إما أنهم تهَّودوا أو تنصَّروا برغبتهم دون دعوة رسل اليهودية والمسيحية لهم .

(٢) أو أن اللَّه أرسل إلى الجن رسلاً منهم ورسلهم هؤلاء كانوا على نمط اليهودية والنصرانية . . وجوز هذا الثانى لاختلاف العلماء فى «هل أرسل اللَّه للجن رسلاً منهم أم لا»؟ .

غير أنه بالرغم من هذا فظاهر الآيات القرآنية تدل على أن الرسُّل من الإنس فقط من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق . .** ﴿٢٠﴾ ﴾[**الفرقان**] .

وقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴿٤٣﴾ ﴾[**النحل**] .

وقوله تعالى : ﴿ **وجعلنا في ذريته** (أي إبراهيم) **النبوة والكتاب** ﴾[**العنكبوت**] فكل نبى بعث بعده فهو منه . . أما قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم . .** ﴿١٣٠﴾[**الأنعام**] فقيل : المراد أن اللَّه أرسل رسلاً من مجموع الجنسين وصدق على أحدهما وهم الإنس كقوله تعالى : ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴿٢٢﴾ ﴾[**الضحى**] أي من أحدهما العذب والملح .

(٣) ما هى نتيجة سماعهم لما قرأه المصطفى ﷺ من قرآن ؟

إن النتائج التى أسفرت عن سماعهم القرآن تتلخص فيما يلى :

١ - التأدب والسكينة والوقار والإنصات فى مأدبة القرآن قال تعالى : ﴿ **. . فلما حضروه قالوا أنصتوا . .** ﴿٢٩﴾ ﴾[**الأحقاف**] والإنصات هو المبالغة فى السماع ولا يتم ذلك إلا إذا سكنت جوارح الإنسان واتجه بكليته إلى ما يريد سماعه ، كما لا يكون ذلك إلا إذا كان ذلك المسموع قد أسرَ بعباراته لُبَّ السامع وفؤاده ، وملَك عليه شعوره وحواسه ، كما لا يتأتى ذلك إلا من سامع عاقل بصير حكيم مؤدب .

٢ - الإيمان باللَّه ونبيّه مُحّمد ﷺ وبالقرآن الذى أنزله اللَّه عليه ومثل هذا الإيمان السريع لا يغلب عليه طابع التفكير العميق أو أعمال الروية أو وزن الآيات القرآنية بميزان العقل والمنطق، وإنما يغلب عليه طابع الهداية الربانية فالذى أمالهم إلى المصطفى فى بطن نخلة هو الذى ألهمهم الإسلام فور سماع القرآن من رسوله، وهذا اللون من الإيمان لا يقع إلا للصفوة المختارة المُلْهمة من البشر ونظيره إســـلام عمر ابن الخطاب فآيات معدودات من سورة طه سمعها من أخته كانت سبباً فى إسلامه وفاتحة خير على الإسلام والمسلمين ، لذلك يعلن هؤلاء النفر من الجن إسلامهم قائلين: ﴿ **وأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا به ...** ﴿١٣﴾ ﴾ ومن عظيم صفاتهم وجليل خلالهم ما أحبوا الأثرة بهذا النور الجديد الذى ملأ قلوبهم بل رغبوا بصدق أن يشركوا فيه قومهم لكن كيف يكون ذلك لابد من مقدمات تشجعهم على قبول ما قبلوا ولابد من مرَغبات تحثهم حثاً على الدخول فى هذا الدين الجديد فكان من توفيق اللَّه لهؤلاء النفر وألمعيتهم وأريحيتهم أن يصفوا لقومهم هذا الكتاب الذى تسببت بعض آياته فقط فى إسلامهم لذلك نعتوه بأصدق النعوت ووصفوه بأفضل الأوصاف.

٣ - فقالوا :

أ - أنه كتاب أُنزل من بعد موسى ولعل السبب فى عدم ذكرهم لعيسى وإنجيله أنه ما جاء بأحكام جديدة زيادة على ما فى التوراة.

ب- كما أن هذا الكتاب مُصدِّق لما سبقه من الكتب السماوية إذ الأديان كلها وشرائعها وكتبها وحدة متماسكة متكاملة يُصدِّق بعضها بعضاً.

جـ- كما أنه هاد إلى الدين الحق دين الفطرة الإنسانية السليمة.

د - وإنه كذلك هاد إلى طريق اللَّه المتضمن لسعادة الخلق فى الدارين.

٤ - حثوا قومهم على الإيمان بما آمنوا به بطريق البشارة حيث قالوا: ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم** ﴿٣١﴾ ﴾

[الأحقاف]

وسواء اعتبرنا «من تبعيضية لما للعباد على بعضهم من الحقوق . . أو ابتدائية لابتداء الغفران من الذنوب وانتهائه بغفران ترك الأولى أو زائدة ولا مبرر لذلك . . ولا داعى له . . سواء هذا أو ذاك فهم حثوهم على الإيمان وشوقوهم إليه، وأوقفوهم على عظيم مآله وحسن ختامه فى مغفرة اللّه تعالى لما سلف منهم من ذنوب ، بالإضافة إلى تجنبهم عذاب الآخرة المؤلم ثم زادوا قومهم طمأنينة حيث قالوا: ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾[الجن].

قال ابن عباس وقتادة وغيرهما فلا يخاف أن ينقص من حسناته . . أي يحمل عليه غير سيئاته كما قال تعالى: ﴿ . . فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾[طه].

وقيل: لا يخاف نقصاً فى عمله وثوابه، ولا ظلما ومكروهاً يغشاه.

وحقيقة البخس هو النقصان - وحقيقة الرهق العدوان والطغيان.

٥ - حثوا قومهم على الإيمان بما آمنوا به عن طريق النذارة والتخويف وذلك فى قوله تعالى: ﴿ . . وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأحقاف] بينوا فى هذه الآية حكم من لم يجب داعى الله وهو رسوله المصطفى وكتابه القرآن فى أمور أربعة وهى ما يلى:

أ - من لم يستجب لداعى اللّه فلن يستطيع الإفلات ولا الهرب بنفسه من الله تعالى.

ب- كما لا يستطيع ذلك بمناصرة غيره له إذ لا ولى له ولا شفيع ولا ناصر.

جـ- كما أنه يكون فى الدنيا تائهاً متحيراً ضالاً منحرفاً عن جادة الصواب.

د - كما أن يكون فى الآخرة حطب النار ووقودها كما قال تعالى ﴿ . . وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ . . ﴿٢٤﴾ ﴾[البقرة] ثم يسلمون الأمر للّه تعالى بقولهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾[الجن].

٤ - ما هو دعاؤهم ؟

وهذه الآيات وإن لم يتضح فيها الدعاء صراحة فإنها مشتملة عليه ضمناً، فهم حينما سمعوا القرآن من الرسول قال بعضهم لبعض: أنصتوا وبالغوا فى السماع، ثم نعتوه بصفات تحمل سامعها على سرعة الإيمان به وبكل ما جاء فيه ثم بشَّروا قومهم بحسن الخاتمة لمن أتبع هذا الرسول المنزل عليه هذا الكتاب ثم حذروهم مغبة المآل إن جحدوا وأنكروا كما أحاطوهم علماً بأنه من أعرض عنه فإنه فى ضلال مبين ولن يفلت من عقاب الله ولن يجد له ولياً ولا نصيراً من دون الله . . فهم بهذا السلوك الطيب مع قومهم وحُسْن بيانهم وإرشادهم نزلوا منزلة الراجى إيمانهم المتطلّع إلى هداية اللّه لهم ومَحْوا ذنوبهم وغفران معاصيهم وشمولهم برحمته الواسعة وهذا هو عين الدعاء لأن من دواعى سعادة الناصح الأمين رجاء الخير لمن ينصحه ولو كان الأمر بيده لأسرع به إليه . . لذلك نجد هذا النفر من الجن قد لونوا لقومهم أسلوب النصيحة والإرشاد بشتى الألوان ونسجوه بمختلف الصور حتى يمتزج بنفوسهم وأرواحهم وحتى يلبوا دعوتهم ويستجيبوا نداءهم وبخاصة أنهم سبقوهم إلى ما يدعونهم إليه من الإيمان حيث قالوا :﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ﴾ ولم يكتفوا بذلك بل قرروا أنه من يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا، فهم بذلك يرفعون أكف الضراعة بسبب إيمانهم باللّه وبرسوله وبكل ما جاء به أن لا يبخسهم عملهم ولايظلمهم حقهم بل يوفيهم ثواب عملهم كاملاً غير منقوص. . وألا يرهقهم ولايحملهم من الأمر شططا ، وألا يوردهم موارد الهلاك والعذاب يوم القيامة حتى لا يكونوا حطباً لجهنم . . فهم آمنوا فور سماعهم القرآن ورجوا الله لأنفسهم كما رجوه لقومهم مغفرةً ورحمةً فى ثواب الإرشاد والنصيحة والوعظ.

٥ - مصير الجن الصالح فى الآخرة :

ويرد فى هذا المقام سؤال وهو ما مصير هذا النفر من الجن ومن آمن مثلهم فى الآخرة أيدخلون الجنة أم لا؟ فى ذلك رأيان نوردهما لتمام الفائدة.

الرأى الأول : هو مذهب جماعة من السلف قالوا : إن حكم الجن هو حكم الإنسان فى الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهى واستدلوا ببعض الآيات القرآنية وهى ما يلى :

١ - ﴿ **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ** ﴿٥٦﴾ ﴾[**الرحمن**] [١] . . غير أن ابن كثير قال وفى هذا الاستدلال نظر ، ثم قال وأحسن منه قوله الله تعالى :

٢ - ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴿٤٦﴾ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴿٤٧﴾ ﴾[**الرحمن**] فقد امتن الله تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس فقالوا : «ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد » فلم يكن تعالى ليمتنَّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم .

٣ - ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً** ﴿١٠٧﴾ ﴾ [**الكهف**] فهو عام .

٤ - ثم قال ما ذكره النافون لذلك من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجازة من العذاب الأليم هو يستلزم دخول الجنة لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار فمن أُجير من النار دخل الجنة لا محالة . . ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن أُجيروا من النار ولـــو صح لقلنا به . . واللَّه أعلم[٢] .

قال الشوكانى ولا ينافى ذلك الاختصار هنا على إجازتهم من النار . . وهذا الرأى أولى وبه قال مالك والشافعى وابن أبى ليلى .

الرأى الثانى : قال الحسن ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار وبه قال أبو حنيفة والقائلون بهذا الرأى قالوا : يقال للجن المؤمن بعد نجاتهم من النار كونوا ترابا . . واستدلوا بقوله تعالى فى سورة الأحقاف ﴿ **يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿٣١﴾ ﴾[**الأحقاف**] .

---

(١) وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير .
(٢) وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

ما يؤخذ من هذا الدعاء

١ - رسالة المصطفى عامة للثقلين .

٢ - آمن بالمصطفى كثير من الجن .

٣ - لم يُبْعث نبى للثقلين قبل المصطفى .

٤ - الجن كالإنس فى الثواب والعقاب .

٥ - وأن منهم المسلم والكافر .

٦ - والمسلم له الجنة والكافر له النار .

٧ - للقرآن تأثير عظيم فى النفوس .

٨ - للصوت الجميل أثر طيب فى إيصال الإيمان إلى القلوب فقد سمعوه ممن نزل عليه لأول مرة .

٩ - اللَّه لا يظلم الخلق شيئاً .

١٠ - الجن كالإنس فى ارتكاب المعاصى .

١١ - من الجن منذرون لقومهم كالإنس .

١٢ - الجن يطلب المغفرة وتجنّب النار .

١٣ - المسلمون متمتعون بخيرى الدنيا والآخرة .

١٤ - الكافرون هم حطب جهنم .

١٥ - يُفهم من قولهم : ﴿ **وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿٣١﴾ ﴾ أن الجن الصالح يتمتع بدخول الجنة .

أي من لم يؤمن فهو فى ضلال واضح كما أنه لا يستطيع الإفلاق من قدرة الله بنفس ولا بمعونة غيره .

١٦ - يفهم من قولهم : ﴿ **وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ** ... ﴿٣٢﴾ ﴾[**الأحقاف**] .

١٧ - الجمع بين الترغيب والترهيب فى الدعوة من أسباب نجاحها ولهذا نجح فى كثير من الجن وجاءوا إلى الرسول ﷺ وفوداً وفوداً ، وآمنوا بالله وبرسوله وكانوا سبباً فى نجاتهم ومن استجابوا لهم من قومهم من النار .

البـــاب الثاني

دعاء الكافرين الأشرار أهل النار
(من الإنس والجن)

هذا الباب يشتمل على أدعية هذا الصنف من الخلق سواء كانوا من الإنس أو الجن ولقد ورد فى القرآن الكريم للإنس أربعة أدعية فى سور الأنفال، والشعراء، والعنكبوت، وسبأ.

وللجـن دعـاء واحـد مكـرر فى سـور الأعراف، والحجر، وص.

الفصل الأول

الدعاء الأول : لأصحاب الأيكة :

قال الله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾** ﴾[**الشعراء**] .

هذه الآية الكريمة تصور مقالة أصحاب الأيكة سيقت ضمن حديثهم وحوارهم مع رسولهم «شعيب عليه السلام» حول نبوته ورسالته إليهم، ولقد ثبت أن شعيباً عليه السلام بعث إلى أمتين:

(١) **الأمة الأولى** : أصحاب مدين وهم قومه وعشيرته، ولذلك قال القرآن: ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا... ﴿٨٤﴾** ﴾[**هود**] وهؤلاء أهلكوا بالصيحة والرجفة.

(٢) **الأمة الثانية** : أصحاب الأيكة، وهم غير قوم شعيب، لذلك قال القرآن ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾** ﴾ [**الشعراء**].

والمراد بالأيكة اسم بلدهم أو الغيطة التى تنبت ناعم الشجر وهى بقرب مدين أو هى الشجر الملتف قيل بكل، وهؤلاء أهلكوا بعذاب الظُّلة . تصور لنا الآيات العشر السابقة على طلبهم هذا الحوار الذى دار رحاه بين أصحاب الأيكة وشعيب عليه السلام فيقول اللَّه تعالى فى سورة الشعراء: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾** ﴾[**الشعراء**]. فماذا كان مآل مطاف حوارهم هذا مع شعيب كان منتهى الحطة فى التفكير والتسفل فى الرأى

والقول . . فقد قالوا له: يا شعيب إن كنت من الصادقين فى دعواك الرسالة وأنك رسول اللّه حقاً فاسقط علينا قطعاً من العذاب من قبل السماء سواء كانت سحباً أو مظلة حتى نعلم صدقك فيما تدعو إليه . . والحقيقة أنه لم يحملهم على ذلك إلا سوء تفكيرهم وتصميمهم على التكذيب والجحود والإنكار.

أنه اضطراب فى التفكير وعقم فى التدبير وانحراف بالعقل وفى العقل عن جادة الطريق، كما أنه كفر بالموازين المنطقية والقضايا العقلية وقصر فى النظر وانعدام الرؤية الصحيحة للمستقبل القريب والبعيد فماذا كان رد شعيب على هؤلاء الناس؟

كان رده رد المتجمل بالصبر الواثق فى اللّه المعتمد عليه كما طوى رده هذا فى ركابه التهديد لهم والزجر والوعيد فقال: ﴿ .. **رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴿١٨٨﴾ ﴾ من الكفر والمعاصى وأعلم أيضاً بكل ما تستحقونه من العذاب فينزله عليكم، فلما تمادوا فى تكذيبهم وإنكارهم وكان الأحرى بهم أن يقولوا يا شعيب إن كان ما جئت به من عند ربك هو الحق فاهدنا اللهم إليه ، ويسِّره لنا، ووجهنا إليه، لَّما لم يقولوا ذلك وأوغلوا فى تكذيبهم استجاب اللّه دعاءهم وأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم «كما أرادوا وكما أحبوا فسلَّط اللّه عليهم الحر سبعة أيام بلياليها حتى أخذ بأنفاسهم وأصبحوا لا ينتفعون بظل ولا ماء يقيهم لفحة الحر، فاضطروا إلى الخروج إلى البرية عسى أن يجدوا متنفساً لهم فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً فاجتمعوا تحتها هروباً مما هم فيه فإذا بها تمطرهم بوابل من النار فأحرقتهم جميعاً.

ويقول ابن كثير فى تفسيره[1]: هؤلاء يعنى أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبى الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ لم يقل: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ** ﴾ وإنما قال: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ** ﴾ ، فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣/٣٥٦-٣٥٧.

الذى نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسبا، ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أُمتين ومنهم من قال ثلاثة أمم ، وقال الطبرى عند تفسيره الآية ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ** ﴿١٧٦﴾ ﴾ والأيكة : الشجر الملتف وهم أهل مدين، والمعنى أي كذّب أصحاب مدين نبيّهم شعيبا[1].

والصحيح أنهم أُمّة واحدة وُصفُوا فى كل مقام بشىء واحد، ولهذا وعظَ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما فى قصة مدين سواءً بسواء، فدلّ ذلك على أنهما أُمةٌ واحدة.

أمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان ونهاهم عن التطفيف فيهما فقال: ﴿ **أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ** ﴿١٨١﴾ ﴾ أي إذا دفعتم للناس فكمّلوا الكيل لهم، ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافياً ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون، وفى الآية إطناب بلاغى ، لأن وفاء الكيل هو في نفسه نهى عن الخسران، وفائدته زيادة التحذير من العدوان ﴿ **وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ** ﴿١٨٢﴾ ﴾ والقسطاس هو الميزان وقيل: القسطاس العدل، وقوله : ﴿ **وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ** .. ﴿١٨٣﴾ ﴾ أي لا تنقصوهم أموالهم ﴾ .. **وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴿١٨٣﴾ ﴾ يعنى قطع الطريق كما قال فى الآية الأخرى ﴿ **وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ** .. ﴿٨٦﴾ ﴾[**الأعراف**] وقوله: ﴿ **وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ** ﴿١٨٤﴾ ﴾. يخوّفهم بأس الله الذى خلقهم وخلق آباءهم الأوائل كما قال موسى عليه السلام: ﴿**قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾ [الشعراء ٢٦] قال ابن عباس ومجاهد والسدى وسفيان بن عينية وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم ﴿والجبلة الأولين﴾ يقول خَلقَ الأولين. وقرأ ابن زيد ﴿ **وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا** .. ﴿٦٢﴾ ﴾[**يس**] ويعنى بها الأمم السابقة[2].

(١) الطبرى ١٩/٦٥.

(٢) الطبرى : ١٩/٦٦.

ثم أخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم حيث قالوا: ﴿.. **إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** ﴿١٨٥﴾﴾ يعنون من المسحـــورين، والمسحر مبالغة عن المسحور ﴿**وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴿١٨٦﴾﴾ أي تتعمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك إلينا ﴿**فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴿١٨٧﴾﴾ قال الضحاك : جانباً من السماء، وقال قتادة : قطعاً من السماء ، وقال السدى : عذاباً من السماء.

وهو مبالغة فى التكذيب، وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر اللَّه عنهم فى قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا** ﴿٩٠﴾﴾[**الإسراء**] إلى أن قالوا: ﴿ .. **أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً** ﴿٩٢﴾﴾[**الإسراء**].

وقوله : ﴿ **وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ** .. ﴿٣٢﴾﴾ الآية، وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة: ﴿**فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ**﴾ الآية .. ﴿**إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ أي إن كنت صادقاً فيما تقول قال الرازى: وإنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه[1]. فعندها أجابهم شعيب ﴿ **قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴿١٨٨﴾﴾ أي الله أعلم بأعمالكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم، وإن كنتم تستحقون عقاباً آخر فإليه الحكم والمشيئة، وهكذا وقع بهم جزاء كما سألوا، جزاءً وفاقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴿١٨٩﴾﴾[**الشعراء**]. وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حرٌ عظيم مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل اللَّه تعالى عليهم منها شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم،

(١) التفسير الكبير : ٥٤/ ١٦٤.

ولهذا قـال تعالى: ﴿.. إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ وقد ذكر الله تعالى صفـة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق.. ففى الأعـراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا: ﴿..لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا..﴿٨٨﴾﴾[**الأعراف**] . فأرجفوا نبى الله ومن أتبعه فأخذتهم الرجفة، وفى سورة هود ﴿.. وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ.. ﴿٩٤﴾﴾[**هود**] وذلك لأنهم استهزؤا بنبى الله فى قوله ﴿.. أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [**هود**] قالوا ذلك على سبيل التهكم والإزدراء فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم قال : ﴿.. وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ.. ﴿٩٤﴾﴾[**هود**] وههنا قالوا :﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية على وجه التعنّت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه ﴿.. فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ .

قال قتادة قال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما : إن اللّه سلّط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شىء، ثم إن الله أنشأ لهم سحابة فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعاً فاستظلوا تحتها فأججت عليهم ناراً، وهكذا روى عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : بعث الله إليهم الظلة حتى إذا اجتمعوا كلهم ، كشف الله عنهم الظلّة وأحمى عليهم الشمس فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المقلى.

وقال محمد بن كعب القرظى : إن أهل مدين عُذّبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرّجفة فى دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلّة ، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلاً أطيب ولا أبرد من هذا، هلموا أيها الناس، فدخلوا جميعاً تحت الظلّة فصاح بهم صيحة فماتوا جميعاً ، ثم تلا محمد بن كعب ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

وقال محمد بن جرير فيما يرويه عن ابن عباس عن هذه الآية :

﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ الآية، قال : بعث الله عليهم رعداً وحراً شديداً فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هرباً إلى البّرية فبعث اللّه عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها، أرسل الله عليهم ناراً، قال ابن عباس فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿ **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴿١٩٠﴾ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴿١٩١﴾ ﴾[**الشعراء**].

أي العزيز فى انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين.

وإلى هنا ينتهى آخر القصص السبع التى أوحيت لرسول الله ﷺ لصرفه عن الحرص على إسلام قومه، وقطع رجائه ودفع تحسّره عليهم، كما قال فى أول السورة ﴿ **لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين** ﴿٣﴾ ﴾[**الشعراء**]. ففيها تسلية لرسول الله ﷺ وتخفيف عن أحزانه وآلامه ، وإنما كرر فى نهاية كل قصة ﴿ **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴿١٩٠﴾ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴿١٩١﴾ ﴾؛ ليكون لك أبلغ فى الاعتبار، وأشد تنبيهاً لذوى القلوب والأبصار.

الفصل الثانى

الدعاء الثانى : لكفار سبأ :

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ... ﴿١٩﴾ ﴾[سبأ] .

سبأ قبيلة من العرب سميت باسم جد لهم يدعى (سبأ بن يشجب «بضم الجيم» ابن يعرب بن قحطان) يعضد ذلك أن رجلاً قال يا رسول الله : ما سبأ أرض أو امرأة؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «**ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشراً من العرب فتيامن منهم ستة أي سكنوا اليمن وتشاءم منهم أربعة سكنوا الشام، فأما الذين تشاءموا "فلخم وجذام وغسان وعاملة" وأما الذين تيامنوا "فالأزد والأشعريون وحمير وكنوة ومذحج وأنمار"**» . . فقال الرجل يا رسول الله وما أنمار؟ قال : « **الذين منهم خثعم وبجيلة** »[أخرجه الترمذى مع زيادة وقال حديث حسن غريب] .

كانت هذه القبيلة تسكن واديا باليمن بينه وبين العاصمة صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ولقد أنعم الله عليهم بخيرات لم تتوافر لغيرهم حيث انتشرت البساتين والجنان فى أرجائه حتى كانت تستر بكثرتها وظلالها المارة فى غدوهم ورواحهم وجعل اللّه مساكنهم طيبة لا سياخ فيها ولا بعوض ولا برغوث ولا حية ولا عقرب، يمر فيها الغريب وفى ثيابه القمل فيموت لطيب هوائها ، كانوا فى رغد من العيش وسعةً من الرزق ومتع متعددة متفاوتة متنوعة وزاد الله فى إكرامهم فعمَّر لهم الصحارى المترامية بين مساكنهم اليمنية والقرى الشامية فجعلها متصلة البنيان عامرة بالأهل والخلان مليئة بالفواكه والثمار والخيرات ليسهل عليهم السفر ولتروج تجارتهم وليأمنوا طريقهم وليقيلوا حيث يريدون وأمرهم أن يأكلوا من رزقه تعالى ويشكروه على ما أولاهم من نعمه وأن يستدلوا بما هم فيه من آلاء على قدرة اللّه ووحدانيته ، وأن الخلائق جميعاً لو اجتمعوا فى صعيد واحد على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولما اهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها فهل استجاب أهل سبأ لأمر الله تعالى؟ وهل شكروا أنعمه؟ وهل اعترفوا بواحدانيته

وقدرته؟ لا . . أنهم فكروا تفكير السقيم وتصرفوا تصرف اللئيم فأعرضوا عن الله جاحدين حتى أبطرتهم النعمة فطلبوا زوال أسبابها استعلاءً وكبراً وزهواً ورغبوا فى أن يباعد الله بينهم وبين أسفارهم إلى الشام فيجعلهم مفاوز وبيداء قاحلة ليتسنى لهم بذلك أن يتطالوا على الفقراء والبؤساء بركائبهم ورواحلهم وزادهم ومائهم.

طلبوا ذلك من الله بَطَرا للنعمة وظُلْماً لأنفسهم وجحوداً بآلائه فاستجاب الله دعاءهم حيث أرسل السَّيل على سَدِّهم الذى كانوا يختزنون الماء خلفه لوقت الحاجة فأغرق أموالهم ودفن بيوتهم وبدَّل جنتيهم بجنتين زواتى أكل خمط(1). وأثل «وهو يشبه الطرفاء» وسدر(2) (أي نبق) . كما انتقم الله منهم فباعد بينهم وبين أسفارهم إلى الشام بعداً مجازياً عن كثرة المشاق وذهاب الراحة لأنه تعالى جعلها مفاوز وبيداء قاحلة كما أحبوا وأرادوا لا أنيس فيها ولا جليس ولا زرع فيها ولا ماء ولا تقارب فى القرى بل تباعدت حتى أصبح السالك فيها هالكاً والمسافر فيها ميتاً، وجعلهم بهذا أحاديث لمن بعدهم، ومزَّقهم شر ممزق ويصور القرآن الكريم فى سورة سبأ ما كانوا فيه من نعيم وما آل إليه مصيرهم بسبب عنادهم وكفرهم وانحطاط تفكيرهم فيقول:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19) ﴾

[سبأ]

---

(1) اختلف فى «الخمط» وحقيقته فقيل (1) هو شجر الأراك. (2) وقيل : كل شجر ذى شوك. (3) وقيل شجرة لها ثمر تشبه الخشخاش لا ينتفع به.

(2) والسدر : هو النبق والمراد منه الضال الذى له ثمرة غضة لا تؤكل أصلاً، ولا ينتفع به لأن النبق صنفان صنف قبيح وهو هذا وصنف آخر وهو ما يؤكل ثمره وينتفع بورقه فى غسل الأيدى.

فانظر كيف مكرَ الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والأُلفة والعيش الهنيء، تفرقوا فى البلاد ههنا وههنا ، ولهذا تقول العرب فى القوم إذا تفرّقوا أيدى سبأ، وأيادى سبأ ، وتفرّقوا شذَر مَدر .

وقال ابن أبى حاتم فيما يرويه عن عكرمة يحدّث بحديث أهل سبأ قال :« **لقدْ كَانَ لسبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ** – إلى قوله تعالى – **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**» وكانت فيهم كهَنَة ، وكانت الشياطين يسترقون السَّمع فأخبروا خبر الكهنة بشيء من أخبار السماء، فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال، وأنه خُبِّر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن العذاب قد أظلّهم ، فلم يدر كيف يصنع ؟ لأنه كان له مال كثير من عقار، فقال لرجل من بنيه وهو أعزّهم أخوالا : يا بنى إذا كان غداً وأمرتك بأمر فلا تفعله فإذا انتهرتك فانتهرنى ، فإذا لطمتك فالطمنى ، قال : يا أبت لا تفعل إن هذا أمر عظيم! وأمر شديد؛ قال يا بنى قد حدث أمر لابد منه فلم يزل به حتى واتاه على ذلك، فلما أصبحوا واجتمع الناس. قال: يا بنى افعل كذا وكذا ، فأبى فانتهره أبوه فأجابه ، فلم يَزل بذلك بينهما حتى تناوله أبوه فلطمه، فوثب على أبيه فلطمه قال : ابنى يلطمنى عَلَيّ بالشفرة، قال: ما تصنع بالشَّفرة؛ قال: أذبحه، قالوا: تريد أن تذبح ابنك؟ الطمه أو أصنع ما بدالك . قال: فأبى، قال: فأرسلوا إلى أخواله ، فأعلموهم ذلك. فجاء أخواله، فقالوا: خذ منا ما بدالك فأبى إلا أن يذبحه، قالوا: فلتموتن قبل أن تذبحه ، قال: فإذا كان الحديث هكذا، فإنى لا أرى أن أقيم ببلد يُحال بينى وبين ابنى فيه ، اشتروا منى دورى، واشتروا منى أرضى، فلم يزل حتى باع دوره وأرضه وعقاره ، فلما صار الثمن فى يده وأحرزه قال: أي قوم إن العذاب قد أظلكم، وزوال أمركم قد دنا فمن أراد منكم داراً جديداً، وحمى شديداً، وسفراً بعيداً، فليلحق بعمان، ومن أراد منكم الخمر والخمير والعصير، وكلمة – قال الراوى لم أحفظها – فليلحق ببصرى . ومن أراد الراسخات فُى الوحل، المطعمات فى المحل، المعمات فى العجل، فليلحق بيثرب ذات نخل، فأطاعه قومه فخرج أهل عمان، إلى عمان، وخرجت غسان إلى بصرى، وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل، قال: فأتوا على بطن فمر فقال:

بنو عثمان: هذا مكان صالح لا نبغي به بدلاً، فأقموا به فسمُّوا لذلك خزاعة لأنهم انخزعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة، وتوجه أهل عُمان إلى عُمان، وتوجهت غسان إلى بُصرى[1] وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن. وكبراء سبأ وكهانهم، وقد ذكر محمد بن إسحاق فى أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذى كان أول من خرج من بلاد اليمن بسبب استشعاره بإرسال العرم عليهم فقال: وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدّثنى به أبو زيد الأنصارى أنه رأى جرذاً يحفر فى سد مأرب الذى كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن، وكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو: لا أقيم ببلد لطم وجهى فيها أصغر ولدى وعرض أمواله، فقام أشراف من أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله، وانتقل هو فى ولده وولد ولده، وقالت الأسد لا نختلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم، وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم عك، وكانت حربهم سجالا، ففى ذلك يقول عباس بن مرداس السلّمى رضى الله عنه

وعك بن عدنان الذين تغلّبوا بغسان حتى طردوا كل مطرد

وهذا البيت من قصدية. قال: ثم ارتحلوا عنهم فتفرّقوا فى البلدان، فنزل آل حفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مراً، ونزلت أزد السراه السراة، ونزلت أرد عمان عمان، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه، وفى ذلك أنزل الله عز وجل هذه الآيات، وقد ذكر السدى قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن اسحاق إلا أنه قال: فأمر ابن أخيه وكان ابنه -إلى قوله- فباع ماله وارتحل بأهله فتفرقوا[2].

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره: هذا أثر غريب وعجيب.

(٢) رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد أخبرنا سلمة عن ابن اسحاق قال: يزعمون أن عمرو بن عامر، وهو عم القوم كان كاهناً فرأى فى كهانته أن قومه سيُمزّقون ، ويباعد بين أسفارهم، فقال لهم: إنى قد علمت أنكم ستُمزقون فمن كان منكم ذاهم بعيد ، وجمل شديد، ومزاد حديد ، فليلحق بكأس أو كرود ، قال فكانت وداعة ابن عمرو، ومن كان منكم ذاهم مدن ، وأمر دعن ، فليلحق بأرض شن، فكانت عوف بن عمر وهم الذين يقال لهم بارق، ومن كان منكم يريد عيشا آنياً، وحرماً آمناً فليلحق بالأرزين فكانت خزاعة، ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوحل، المطعمات فى المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل، فكانت الأوس والخزرج وهما هذان عن الحيان من الأنصار، ومن كان منكم يريد خمراً أو خميراً ، وذهباً وحريراً، ومُلْكاً وتأميراً ، فليلحق بكوثى وبصرى، فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشام ، ومن كان منهم بالعراق. قال ابن اسحاق وقد سمعت بعض أهل العلم يقول: إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر، وكانت كاهنة فرأت فى كهانتها ذلك فاللّه أعلم أي ذلك ما كان. وقال سعيد عن قتادة عن الشّعر : أما غسان فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق[1] ثم قال محمد بن اسحاق: حدثنى أبو عبيدة قال: قال الأعشى أعشى بنى قيس بن ثعلبة واسمه ميمون بن قيس:

وفى ذلك للمؤتسى أسوة ... ومأرب عفى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير ... إذا ما نأى ماؤهم لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها ... على سعة ماءهم إذا قسم
فصاروا أيادى مَا يقدر ... ومن منه على شرب طفل فطم

وقوله تعالى: ﴿ .. إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ ﴾ [إبراهيم] أي أن فى هذا الذى حَلّ بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبّار على المصائب، شكور

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

على النعم، روى الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: « **عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، يؤجر المؤمن فى كل شىء حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته** » وقد رواه النسائى فى اليوم والليلة من حديث ابن إسحاق السبيعى به وهو حديث عزيز من رواية عمر بن سعد عن أبيه ولكن له شاهد فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه «**وعجباً للمؤمن لا يقضى الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا المؤمن**»، قال عبد حدثنا يونس عن سفيان عن قتادة ﴿ .. **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ۝ ﴾ [إبراهيم] قال كان مطرف يقول: نعم العبد الصبّار الشكور، الذى إذا أُعطى شكر، وإذا ابُتلى صبر. أ. هـ.

الفصل الثالث

الدعاء الثالث : لكفار مكة :

﴿ **وإذْ قالُوا اللَّهُمَّ إن كانَ هذا هُوَ الْحقَّ منْ عندكَ فَأمْطرْ علَيْنا حجارةً من السَّماء أو ائْتنا بعذاب أليمٍ** ﴿٣٢﴾ ﴾[**الأنفال**] . . فمن قائل هذا القول على التعيين ؟ تعددت آراء المفسرين فى ذلك :

١ - ذهب البعض إلى أن قائل هذا هم الذين اجتمعوا فى دار الندوة للتشاور فى القضاء على الرسول ودعوته ولعلهم استدلوا على هذا بالآية رقم (٣٠) السابقة على هذه وهى ﴿ **وإذْ يَمْكُرُ بكَ الَّذين كَفرُوا** . . ﴿٣٠﴾ ﴾[**الأنفال**] .

٢ - وذهب البعض الآخر إلى أن قائل هذا هو النضر بن الحرث لأنه المقول فيه الآية (٣١) السابقة على هذه وهى : ﴿ **وَإذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قدْ سمعْنا لوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مثْلَ هَذَا إنْ هَذَا إلاَّ أَسَاطيرُ الأَوَّلينَ** ﴿٣١﴾ ﴾[**الأنفال**] . غير أن هذه المقالة أُسندت إلى الجميع لأنه كان رئيسهم وقاضيهم الذى يقولون بقوله ويأتمرون بأمره .

ومن العجب أن يطلب العبد من ربه ما يسبِّب هلاكه ويحطم كيانه والأكثر عجباً من ذلك أن يطلب جماعة من علِية القوم ووجهائه مثل هذا الطلب ليتأكدوا من صدق الرَّسول فى دعواه الرسالة وأن القرآن الذى نزل عليه هو كلام اللَّه حقاً، إنه طلب من السفاهة بمكان إن دل على شىء فإنما يدل على قبح العناد الذى يفقد معه صاحبه أبسط قواعد العقل والتفكير كما يدل على التسفُّل المهين الذى يؤدى بصاحبه إلى الدرك الأسفل من التخبط والجنون . . لقد صدر هذا القول من عتاة قريش وصناديدها ورؤوس الكفر فيها، وكان الأجدر بهم وهم من المكانة المرموقة فى قومهم أن يطلبوا من الله تعالى الهداية لأنفسهم ويرجوا شرح صدروهم لما جاء به الرسولﷺ وهو منهم ولهم، وأن يقولوا اللَّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاشرح صدرنا له وأهدنا إليه ، واقنعنا به ، فبدلاً من أن يطلبوا هذا من اللَّه تعالى،

طلبوا أمراً عجباً ألا وهو أن يُمطرهــم اللّه بوابل من الحجـــارة تأتيهم من السماء، أو يأتيهم الله بأى نوع أو لون من ألوان العذاب ليكون ذلك خير دليل على صدق مُحَمد فى دعواه الرسالة وليكون خير شاهد على أنّ ما جاء به هو حق وصدق من عند اللّه، ولقُبح هذه الأسئلة وسماجة أصحابها لم يجبهم اللّه تعالى إليها . . أضف إلى ذلك أن اللّه قد أنهى عذاب الاستئصال ببعثة المصطفى ﷺ. . لهذا نجد الآيات عقب قولهم هذا ناطقة بعدم استجابة طلبهم مع بيان علة المنع قائلة: ﴿ **وما كان اللّهُ ليُعذِّبهُمْ وأنت فيهمْ وما كان اللّهُ مُعذِّبهُمْ وهُمْ يسْتغْفرُون (٣٣) وما لهُمْ ألاَّ يُعذِّبهُمُ اللّهُ وهُمْ يصُدُّون عن الْمسْجد الْحرام وما كانُوا أوْلياءهُ إنْ أوْلياؤُهُ إلاَّ الْمُتَّقُون ولكنَّ أكْثرهُمْ لا يعْلمُون (٣٤)** ﴾[**الأنفال**] .

التفسير:

﴿ **وإذْ قالُوا اللَّهُمَّ إن كان هذا هُو الْحقَّ منْ عندك** ﴾أي إن كان هذا القرآن حقاً مُنزَّلاً من عندك ﴿ **فأمْطرْ عليْنا حجارةً مّن السَّماء** ﴾. أي أنزل علينا حاصباً وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط ﴿ **أو ائْتنا بعذابٍ أليمٍ** ﴾ أي بعذاب مؤلم أهلكنا به، وهذا تهكمٌ منهم واستهزاء قال ابن كثير: وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم، وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفههم[1]. ﴿ **وما كان اللّهُ ليُعذّبهُمْ وأنت فيهمْ** ﴾ . هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم أى أنهم مُستحقون سُنّة الله وحكمته ألا يُعذّب أُمّـــة ونبيها بين ظهرانيها ، قـــال ابن عباس: لم تُعذب أُمَة قط ونبيّها فيها[2]. والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال ﴿ **وما كان اللّهُ مُعذّبهُمْ وهُمْ يسْتغْفرُون** ﴾ .

أي وما كان اللّه ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون اللّه ، وهو إشارة إلى استغفار من بقى بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين ، قال ابن عباس: كان

---

(١) ابن كثير : ٢/ ٣١١.
(٢) البحر : ٤/ ٤٨٩.

فيهم أمانان : نبى الله ﷺ والاستغفار ، أما النبى فقد مضى ، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة[1] ، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد فى مسنده والحاكم فى مستدركه عن ابن سعيد أن رسول الله ﷺ قال: « **إن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم فقال الرب: وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى** » ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وروى الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد عن النبى ﷺ أنه قال: « **العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله عز وجل** »، ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿ **وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ... (٣٤)** ﴾[**الأنفال**] . أي وكيف لا يُعذّبهم اللّه وهم يصدُّون عن المسجد الحرام أي الذى بمكة يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به ، ولهذا قال ﴿ **وما كانوا أولياءه إنْ أولياؤه إلاَّ المتَّقون** ﴾ . أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبى ﷺ وأصحابه ، كما قال تعالى : ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمُروا مساجد الله شاهدين علىٰ أنفسهم بالكفر أُولئك حبطت أعمالُهم وفي النار هم خالدون (١٧) إنما يعمُرُ مساجدَ الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلاَّ الله فعسىٰ أُولئك أن يكونوا من المهتدين (١٨)** ﴾[**التوبة**] وقال تعالى : ﴿ .. **وصدٌّ عن سبيل الله وكُفرٌ به والمسجد الحرام وإخراجُ أهله منه أكبرُ عند الله.. (٢١٧)** ﴾ **الآية** [**البقرة**]

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية حدثنا سليمان بن أحمد وهو الطبرانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ : من آلك؟ قال: « **كل تقى** » وتلا: رسول اللّه ﷺ : « **إن أولياؤه إلا المتقون** » وروى الحاكم فى مستدركه عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعه عن أبيه عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال: « **هل فيكم من غيركم ؟** » قالوا: فينا ابن أختنا وفينا حَليفنا وفينا مولانا فقال: « **حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا إن أوليائى منكم المتقون** » ثم قال: هذا صحيح ولم يخرجاه ، وقال عروة والسدى ومحمد بن اسحاق فى قوله

(١) الرازى : ١٥/١٥٨ .

تعالى: ﴿ إنْ أوْلياؤُهُ إلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم، وقال مجاهد هم المجاهدون من كانوا من وحيث كانوا ﴿ ولَكنَّ أكْثرهُمْ لا يعْلمُون ﴾ أي ولكنه أكثرهم جهلة سَفَلَة فقد كانوا يقولون : نحن ولاة البيت الحرام، نصد من نشاء، ونُدخل من نشاء.. والغرض من الآية بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال بسبب جرائمهم الشنيعة ، ولكن اللَّه رفعه عنهم إكراماً وبركةً لرسوله محمد ﷺ ، ولاستغفار المسلمين المستضعفين بين ظهرانيهم.

الدعاء الرابع : لكفار مكة :

﴿ وقَالُوا لوْلا أُنزِل علَيْه آياتٌ مّن رَّبّه قُلْ إنَّما الآياتُ عند الله وإنَّما أنا نذيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ ﴾[**العنكبوت**].

هكذا يمتد العناد بكفار مكة فيتمنوا تعنتاً وكبراً وتعجيزاً واستهزاءً أن ينزل الله على نبيه محمد ﷺ آيات كآيات الرسل السابقين عليه وذلك مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم الصلاة والسلام.

ولما كان تمنِّيهم هذا لم يُقصد به الاهتداء إلى الصواب والخير أمر اللَّه تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يعرفهم أن تحقيق هذا التمنى وحصوله إنما هو من اختصاص الله تعالى حيث ينزل الآيات حسبما يشاء لا دخل لأحد من الخلق فى ذلك قطعاً، ثم أمره تعالى أن يعرفهم أيضاً بأن وظيفته إنما هى إنذارهم فحسب بما أتاه اللَّه تعالى من الآيات ، كل هذا ذكر فى الآية التى حكمت تمنيهم فى صدرها.

ثم أفحمهم اللَّه تعالى فقال: ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا علَيْكَ الْكتَابَ يُتْلَىٰ عليْهِمْ إنَّ في ذَلكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ كَفَىٰ باللَّه بَيْنِي وبَيْنَكُمْ شَهيدًا يعْلَمُ ما في السَّموات والأَرْضِ والَّذين آمَنُوا بالْبَاطل وكفرُوا باللَّه أُولَئك هُمُ الْخَاسرُون ۝٥٢ ﴾[**العنكبوت**].. وعلى هذا النمط قوله تعالى فى سورة الزخرف: ﴿ وقَالُوا لوْلا نُزِّل هذا الْقُرْآنُ علَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عظيمٍ ۝٣١ ﴾[**الزخرف**].. وعلى هذا النمط جاء الكثير فى القرآن واكتفينا بهذه الآية لأن هدفنا من هذا الفصل هو بيان الأدعية الواردة على ألسنة الكفار، والتى أودت بأصحابها فى الهلاك فكان مأواهم النار وبئس المصير.

الدعاء الخامس : لكفار مكة :

﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لايَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤)** ﴾ [**العنكبوت**] .

امتداداً لمعانى وأهداف الآيات السابقة سالفة الذكر سرد القرآن الكريم هاتين الآيتين لبيان مدى ضلال هؤلاء القوم وبعدهم عن الحكمة والتعقل والرشاد وأنهم دائموا استعجال الشر بدل الخير والعذاب بدل الثواب . . فبعد أن بين الله تعالى أن مع نبيه محمد ﷺ معجزة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، ولا تختص بزمان دون زمان على غرار ما اقترحوه وعلموه عن معجزات الرسل السابقين أخبره جل شأنه أن هؤلاء القوم سيستعجلون الذى وعدتهم به استعجال استهزاء وسخرية ولقد سبق قولهم : ﴿ . . **فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)** ﴾[**الأنفال**] . ولقد تعددت آراء المفسرين فى حقيقة هذا العذاب الذى استعجلوه وها هى أهمها :

١ - قيل : استعجلوا وقت آجالهم .

٢ - وقيل : استعجلوا يوم بدر .

٣ - وقيل : هو عذاب الآخرة وهذا أرجحها بدليل ما يأتى :

أ - قوله تعالى : ﴿ **وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ .

ب - قوله تعالى : ﴿ **يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ .

جـ - ﴿ **يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)** ﴾[**العنكبوت**] هذه التعبيرات تأكيد وترشيح لكون العذاب الذى استعجلوه هو عذاب يوم القيامة لا آجالهم ولا عذاب يوم بدر .

لهذا عرفهم الله تعالى أنه ضرب لعذابهم الذى وعدوه واستعجلوه أجلاً مسمى وموعداً لا يتجاوزوه مثبتاً فى اللوح المحفوظ ولولا ذلك لجاءهم حينما استعجلوه ولسوف يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ويظنون أنهم آمنون لا يخطر ببالهم كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الأمم بياتاً وهم نائمون أو ضُحًى وهم يلعبون .

هذه الأدعية الخمسة الصادرة عن بعض بنى آدم من أعظم الطرق المعمقة للشرك برب العباد، كما أنها تدل على غلبة الهوى والنفس الأمارة بالسوء على قواعد العقل والتفكير، كما أن للشيطان فى هذا المقام سهماً وافراً حيث اتخذه أصحاب هذه الأدعية لهم إماماً يحتذى فهم على خطوه سائرون وعلى دربه ماضون حذوك النعل بالنعل . .

وهذه الأدعية الخمسة التى منها ثلاثة لكفار مكة وواحد لأصحاب الأيكة وواحد لكفار سبأ قد تكرر نظيرها فى كل عصر ومع كل رسول ونبى وضرب كفار مكة فيها بسهم وافر كقولهم فى سورة الأنعام :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ . . ﴿٨﴾ ﴾[الأنعام] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ . . . ﴿٣٧﴾ ﴾[الأنعام] .

وفى سورة هود : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ . . . ﴿٨﴾ ﴾[هود]، ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ . . ﴿١٢﴾ ﴾[هود] .

وفى سورة الرعد : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾[الرعد] .

وفى سورة الحجر : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾[الحجر] .

وفى سورة الإسراء : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴾[الإسراء] .

وفى سورة الحج : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (٤٧) ﴾[الحج] .

وفى سورة الفرقان : ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا (٧) ﴾[الفرقان] ، ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ... (٢١) ﴾[الفرقان] . ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة .. (٣٢) ﴾[الفرقان] .

وفى سورة سبأ : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٢٩) ﴾[سبأ] .

وفى سورة الزخـــرف : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (٣١) ﴾[الزخرف] .

وكما توالت الأسئلة على رسول الله ﷺ تعنتاً وكبراً واستعلاء فكذلك كان الشأن مع الرسل السابقين عليهم من أممهم وأقوامهم .

فقوم نوح يقولون له : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٧٠) ﴾[الأعراف] .

وقوم صالح يقولون له : ﴿ ... يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين (٧٧) ﴾[الأعراف] .

وقوم لوط يقولون له : ﴿ .. ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين (٢٩) ﴾

[العنكبوت]

وكذلك الحال فى قصة بقرة بنى إسرائيل ، وكذلك سؤال الحواريين المائدة وسؤال اليهود موسى أن يريهم ربهم وسؤال أهل الكتاب المصطفى ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء جملة واحدة كما ورد فى سورة النساء ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء .. (١٥٣) ﴾[النساء] .

لقد قلب أصحاب هذه الأسئلة موازين الحياة رأساً على عقب حيث جعلوا وسائل هدايتهم وأسباب سعادتهم وسائل ضلالهم وركائز انحرافهم، فبدلا من أن يسيروا على النهج المشروع والدرب المعقول ، مشوا على النقيض تماماً فسبحان من أقام العباد فيما أراد .

الفصل الرابع
دعاء الجن الكافر فى القرآن الكريم

الدعاء السادس لـ « إبليس اللعين » :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [ص] .

لم يرد فى القرآن الكريم لكفرة الجن وعصاتهم من الأدعية إلا دعاء واحد لإبليس اللعين وهذا الدعاء ورد فى ثلاث سور هى (الأعراف والحجر وص) .

ففى سورة الأعراف ثمانى آيات تبتدئ من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ وتنتهى بقوله تعالى: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف] .

وفى سورة الحجر سبع عشرة آية تبتدئ بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحجر] . وتنتهى بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر] .

وفى سورة «ص» خمس عشرة آية تبتدئ بقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ [ص] وتنتهى بقوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص] .

فدعاء إبليس الوارد فى هذه الآيات هو قوله : ﴿ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قد تكرر فى سورتى الحجر وص ولكن بزيادة لفظ «رب» فيهما .

فهل هذا الدعاء تكرر من إبليس نفسه ، أم أنه تكرر لمناسبة البيئة القرآنية له وهى خلق آدم وأمر إبليس بالسجود له ؟ لو كان الثانى لما كان هناك مقتضى لزيادة لفظ «رب» فى سورتى الحجر وص وعدم ذكره فى سورة الأعراف .

ولهذا نرى أن إبليس كرر هذا الدعاء ثلاث مرات الأولى حينما قال اللّه له ﴿ **فاهبط منها** ﴾ أى الجنة أو السماوات ﴿ **فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾ الذليلين ، فكان جواب إبليس : ﴿ **قال أنظرني إلى يوم يبعثون** ﴾ بغير لفظ «رب» وفى المرة الثانية لما قال الله له: ﴿ **فاخرج منها فإنك رجيم (٣٤) وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين (٣٥)** ﴾ رغب إبليس أن يتلطف فى الطلب بذكر لفظ الربوبية تأدباً فى مقام الألوهية ، وبخاصة بعد أن أخبره الله بطرده وأن اللعنة ستلحقه إلى يوم الجزاء.

وفى المرة الثالثة لما قال الله له : ﴿ **فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨)** ﴾ لعل إبليس ظن أن اللعنة التى أخبره الله بها فى المرة الثانية بأنها ستلحقه إلى يوم الجزاء، إنما هى لعنة ملائكته أو الصالحين من خلقه مثلاً، فلما أخبره الله تعالى قائلاً : ﴿ **وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين** ﴾ اضطر الخبيث أن يكرر الدعاء للمرة الثالثة مقروناً بلفظ الربوبية الدال على تربية الله تعالى له وكفالته استدراراً لرحمة الله حتى يجيبه إلى طلبه ولكن هذا الخبيث لم يقم لهذه التربية وزناً ولا لهذه الكفالة اعتباراً، ولم يذكر لفظ الربوبية تأدباً مع الله وإنما ذكره لتحقيق طلبه ومبتغاه إذ لو ذكره إجلالاً للّه تعالى لتاب من معصيته وطلب المغفرة من ربه . . إنه لم يحتذر ولم يتب ولم يعلن العودة إلى ربه ولم يبد أسفاً على ما حصل منه ولا ندماً على ما وقع . . بل صرف النظر عن كل هذا وطلب أن يؤخره اللّه إلى يوم البعث ، ومن غباء خبثه ظن أن حيلته هذه سيستجيب اللّه لها . . لقد كان يقصد من وراء دعائه هذا خمسة أهداف كل هدف منها ملئ بالمكر ومشحون بالخبث.

الهدف الأول : الفرار من الموت لأنه إذا أُخر ليوم البعث فلا موت مُدْركه إذ لا موت بعده.

الهدف الثانى : الفرار من مرارة الموت ، وذل نفسه ، وذهاب كبريائه إذ لا يذل المتعالين المتكبرين إلا الموت.

الهدف الثالث : استدراج الخلق إلى طاعته وعبادته من دون الله حيث يلقى فى روعهم أنه لو كان عبداً مثلهم أو يجرى عليه ما يجرى عليهم من أحكام لمات مثلهم وهذه شر فتنة تنتظره .

الهدف الرابع : الانتقام من الجنس البشرى لأنه فى اعتقاده هو السبب المباشر لخروجه من الجنة أو من طاعة اللَّه .

الهدف الخامس : إطالة مدة حياته حتى يستطيع تكثير سواد رفاقه فى جهنم وذلك بإغوائهم وإضلالهم . . فهل استجاب الله دعاءه أم لا؟؟

فى الحقيقة أن الله ما استجاب كل دعائه ولا رده كله لأن من أهداف دعائه الفرار من الموت ولعل هذا الهدف هو أهم الأهداف عنده لهذا لم يجبه اللَّه إليه حتى يذوق مرارة الموت وتذل نفسه ويعلم الخلق أنه مخلوق للَّه تجرى عليه أحكامه كما تجرى عليهم، فيبطل الله بموته افتتانهم به وفتنته لهم بأنه نسيج وحده وليس هو كسائر الخلق . . كما أن من أهدافه فى دعائه إطالة عمره ولقد حقق اللَّه له ذلك ولكن فى منتهى الحكمة حيث قال الله له: ﴿ **إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ** ﴾ فى سورة الأعراف، فلعل اللعين ظن أنه استجيب له فتوعد مزمجراً ومهدداً وقائلا: ﴿ . . **فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾** ﴾ فجاءت آية الحجر وص لتخيب أمله فيما ذهب إليه من ظن قائله له : ﴿ **قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾** ﴾ [**ص**] فهل سكت ذلك اللعين ؟ لا بل هدد كما هدد سابقاً . . حيث هدد بإغواء بنى آدم فى الآخرة ومواقفها حين أطلق الله أنظاره، ولما قيده بالوقت المعلوم هدد بالإغواء فى الدنيا فقال: ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾** ﴾ .

وأرجح أقوال المفسرين فى المراد من الوقت المعلوم هو «النفخة الأولى» . . أى أن إبليس وذريته لن يدركهم الموت إلا بالنفخة الأولى حيث يبقون أحياء ويستمرون فى موتهم حتى تدركهم النفخة الثانية فيُبعثون كسائر الخلق للحساب والمقاصة .

ولعل من الحكمة الإلهية فى مد آجالهم إلى النفخة الأولى ليظهر لإبليس أن للَّه عباداً لا يستطيع الغلبة عليهم مهما امتدت بإبليس وذريته السنون والأعوام ومهما طالت بهم الأعمال، يتضح ذلك من قوله تعالى فى سورة الحجر: ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ ما هو يا رب هذا الصراط الذى التزمت به نفسك؟ قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر].

ويمكن استنتاج ما يلى من أدعية هذا الفصل

١ - من حمق بعض البشر طلب العذاب استدلالاً على صحة دعوى الرسل ورسالاتهم من قبل اللَّه تعالى وصدقهم فيها.

٢ - من السفاهة العقلية طلب المتاعب الدنيوية استعلاءً على الفقراء بما لهم من مال وركائب وزاد.

٣ - كثرة الأسئلة غير الهادفة إلى الخير تجلب لأصحابها المصائب والآلام والأحزاب وتستوجب غضب الله.

تم الكتاب بعون الله تعالى وتوفيقه ...

خاتمة

وبعد فهذه صورة مشرقة من أدعية الصالحين أهل الجنة الأبرار وستبقى سيرتهم وكلماتهم العطرة معيناً يزخر بالمعانى الكريمة والقيم الفاضلة للإنسانية فى مختلف انطلاقها، عصراً بعد عصر وجيلاً بعد جيل، كما ستبقى شريعة القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ هدى ورحمة للعالمين ، هى العلاج الوحيد لحل مشاكل الحياة ، والبلسم الشافى لأمراض الإنسانية.

وخليقٌ بنا فى هذه الآيام. وقد تكاثفت من حولنا الظلمات، وأدلهَّمت بنا الخطوب ، أن نرجع إلى شريعة الله الخالدة، فنقيم حياتنا على مبادئها القويمة، وأصولها الحكيمة ، وبذلك نكون أهلاً لنصر الله ورعايته : ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمَنُوا إن تنصُرُوا اللَّهَ ينصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أقْدَامَكُمْ (٧)** ﴾[**محمد**].

﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ من قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)** ﴾[النور].

وعلينا أن نكون على يقظة مما يُبيّت للإسلام من شر ، ويثار حوله من شكوك، لأن أعداء الله يحاولون أن يُطفئوا نور الله، وأن يصدوا الناس عن تعاليمه الفاضلة ويصرفوهم عن هدايته الشاملة ﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٨٩)** ﴾[النساء] ، يحاولون القضاء على الإسلام لأنه الدين الذى يدعو إلى التوحيد، ولأنه الدين الذى كفل للبشرية السعادة والازدهار والتقدم والرخاء بما رسم من مبادئ وآداب وشرائع وأحكام . . ويحاولون القضاء على المسلمين كجماعة تعتنق الإسلام ،

لأننا الأُمة المختارة لتنفيذ أوامر الله ونواهيه ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴿١١٠﴾ ﴾[**آل عمران**] .

ولأننا الأمة الوسط التى ادخرها اللّه للشهادة على البشرية ، وجعل لرسولها ﷺ الشهادة عليها : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** .. ﴿١٤٣﴾ ﴾[**البقرة**] .

ولهذا فهم يعملون جاهدين على إلقاء الشبهات حول مبادئ الإسلام والتشكيك فى تعاليمه، والتزهيد فى آدابه ، وتشويه عقيدته ، ومسخ حضارته، وتشجيع الخروج عليه، وتعويق الدعوة إليه ، وقطع الطريق على دعاته ، وبث روح الفرقة والخصومة بين أبنائه ، وفى سلخ الأمة الإسلام عن ماضيها الحافل بالأمجاد ، وتصوير رسول الله ﷺ فى صورة لا تتفق ومكارم أخلاقه ، وسموا آدابه، وحميد سلوكه كما تفعل الصهيونية ومن لف لفهَم فى أمريكا والدوائر الغربية، ولهم فى ذلك طرق فى الاستهواء جذابة ، وحيل فى الإضلال بارعة، وأساليب فى الإفساد ماكرة، ولقد أفصح عن تلك النوايا الخبيثة والقصد السيء فى صراحة وقحة رئيس وزراء بريطانيا «غلادستون» حينما وقف فى آواخر القرن الماضى فى مجلس العموم البريطانى يصيح فى أعضائه ويقول : «إن العقبة الكؤود أمام استقرارنا بمستعمراتنا فى بلاد الإسلام شيئان ، ولابد من القضاء عليهما مهما كلفنا الأمر ، أولهما هذا الكتاب «يعنى القرآن الكريم» ، وسكت قليلاً ثم اتجه نحو الشرق مشيراً بيده اليسرى قائلاً «وهذه الكعبة» ويقول القسيس: «وليم جيفورد بالكراف» : متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب . . أمكننا حينئذ أن نرى العربى يندرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه ، وإنما ركزوا على القرآن الكريم، والكعبة المشرفة لأن القرآن الكريم هو المعجزة الباقية ، والحجة القائمة ، والمعين الفياض بألوان المعرفة والفضيلة، ولأن الكعبة هى مصدر وحدة المسلمين، وجمع كلمتهم على الحق والعدل والمساواة، فإذا ما نجح أعداء

الله فى القضاء عليهما وقع المسلمون فريسة بين أنيابهم ، وتم لهم ما أرادوا من القضاء عليهم والقضاء على الإسلام وهيهات لما أرادوا ﴿ **وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ** ﴿٢٠﴾ ﴾[**البروج**] .

إن أعداء الله فى سبيل تحقيق أهدافهم يبذلون الجهود الجبارة، ويرصدون الأموال الطائلة ، ويجنّدون الطاقات الهائلة، ومن هنا كانت المهمة الملقاة على عاتقنا خطيرة، وكانت المسئولية عن هذا الدين أمام الله عظيمة.

فعلينا أن ندافع عن إسلامنا بكل ما أُوتينا من قوة، إذ فى سبيله يهون الذل، ويرخص الفداء ، ويعظم الأجر، علينا أن نتمسك به ، وأن نتعصب له، وأن نصحح الأفهام فيه، وأن نجاهد فى الله حق جهاده ملوكاً ورؤساء ، أفراداً وجماعات، جنداً وقادة ، طلاباً وأساتذة ، كل فى دائرة عمله وفى مجال تخصصه حتى يبقى الإسلام قوياً ، ويحيا المسلمون أعزة ﴿ .. **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ** ﴿٤﴾ ﴾[**الروم**] وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت المراجع

القرآن الكريم وتفسيره :

١ - القرآن الكريم كتاب الله تعالى : ﴿ **أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴿١﴾ ﴾[**هود**] .

٢ - تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ الجليل عماد الدين : إسماعيل بن كثير الدمشقى المتوفى سنة ٧٤٤هـ - ط : التوفيقية مصر .

٣ - مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، للإمام أبى الفضل محمد فخر الدين بن عمر بن الحسن الرازى .

٤ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى لأبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ- الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٠١هـ.

٥ - تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) لابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ (١-١٦) تحقيق محمود محمد شاكر - القاهرة .

٦ - الجامع لأحكام القرآن لأبى عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن بكر بن فرج الأنصارى القرطبى - دار القلم ١٩٦٦ - القاهرة .

٧ - التسهيل لعلوم التنزيل للحافظ المفسِّر محمد بن أحمد بن جزى الكلبى - ط . الحلبى ١٣٥٥هـ.

٨ - تفسير وبيان القرآن الكريم مع أسباب النزول للسيوطى، محمد حسن الحمصى، دار الرشيد ، بيروت .

٩ - آيات الدعاء فى القرآن الكريم ، بحث دكتوراه لفضيلة الشيخ . محمد محمود أحمد ، مكتبة كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٨٩م - القاهرة .

١٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للعلامة الأستاذ / محمد فؤاد عبدالباقى . القاهرة ١٣٧٨هـ.

١١- محاسن التأويل ، جمال الدين القاسمى ، ط. دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وأولاده ، القاهرة.
١٢- صفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابونى ، دار الرشيد ، حلب، سوريا.
١٣- فتح القدير للشوكانى ، ط. أولى. الحلبى، ١٣٥٩هـ - القاهرة.
١٤- مختصر تفسير ابن كثير للأستاذ الصابونى.
١٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوازمى (٤٦٧-٥٣٨هـ) ط. الحلبى ١٣٥٤هـ- القاهرة.
١٦- تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبى السعود محمد بن محمد العمادى (٨٩٦ - ٩٥١) ط. صبيح ، القاهرة.
١٧- تفسير الجلالين : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية وبهامشه خمسة كتب : الأول تفسير الجلالين لجلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى، والثانى لأبى البقاء عبدالله بن الحسين العكبرى فى وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القراءات. والثالث: مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن، والرابع : لُباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى، والخامس: فى معرفة الناسخ والمنسوخ لأبى عبدالله محمد بن حزم. طبع بمطبعة عيسى البابى الحلى وشركاه بمصر.
١٨- أحكام القرآن لابن العربى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ. ط. دار الفكر.
١٩- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى . ط الحلبى، ١٣٨١هـ.
٢٠- التفسير القيم لابن القيم المعروف بابن القيِّم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت.
٢١- البحر المحيط لأبى حيان التوحيدى ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٢- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل للإمام علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الصوفى المعروف بالخازن ، ط. دار الكتب العربية الكبرى بالقاهرة.
٢٣- تفسير القرآن الحكيم المشتهر «بتفسير المنار» للإمام الشيخ محمد عبده وتكملة السيد رشيد رضا - ط. المنار ١٣٢٥هـ.

٢٤- تنوير المقياس فى تفسير ابن عباس للفيروز آبادى ، أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازى الشافعى المتوفى سنة ٨١٧هـ.

السنة وشروحها :

١ - فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ، ط. الريان ، القاهرة.

٢ - صحيح البخارى بشرح الكرمانى للإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى (١٩٤ - ٢٥٦هـ) ، المطبعة المصرية ، سنة ١٣٥٣هـ.

٣ - الترغيب والترهيب للمنذرى زكى الدين عبدالعظيم بن عبدالقوى (٥٨١-٦٥٦هـ) ، ط. مكتبة الحديث، القاهرة.

٤ - سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألبانى، ط. المكتب الإسلامى.

٥ - سنن أبى داود، ط. الحلبى سنة ١٣٧١هـ.

٦ - سنن الترمذى أبو عيسى «بشرح تحفة الأحوذى» ط. الحلبى، بمصر.

٧ - سنن ابن ماجة، ط. الحلبى ، سنة ١٣٧١هـ ، بمصر.

٨ - صحيح مسلم بشرح النووى (الإمام أبو الحسن بن الحجاج القشيرى) (٢٠٦-٢٦١هـ) ط. دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٧٤هـ ، القاهرة.

٩ - مفتاح كنوز السُّنة للدكتور / أ. ى. منسنك، ط. إدارة ترجمان السُّنة ، بيروت.

١٠- المسند للإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) المطبعة الميمنية سنة ١٣١٣هـ، ومطبعة المعارف سنة ١٣٦٥هـ، تحقيق أحمد شاكر (١٣٠٩-١٣٧٧هـ).

١١- المستدرك للحاكم : محمد بن عبدالله (٣٢١-٤٠٥هـ) طبع دائرة المعارف بحيدر آباد سنة ١٣٤٠هـ.

١٢- الطبرانى : سليمان بن أحمد (٢٦٠-٣٦٠هـ) «المعجم الكبير» مخطوط، ثم ثم طبع ببغداد فى خمسة وعشرين مجلدا مع خرم.

١٣- الطبرانى «المعجم الصغير» مطبعة الأنصار بدهلى سنة ١٣١١هـ.

١٤- الأذكار من كلام سيد الأبرار للنووى ، ط. المكتبة العصرية ، بيروت.

١٥- سنن الدارمى ، ط. شركة الطباعة الفنية المتحدة سنة ١٣٨٦هـ.

١٦- السنن الكبرى للبيهقى : الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ هـ، ط. الهند، سنة ١٣٤٤هـ.

١٧- موطأ مالك : الإمام أبو عبدالله مالك بن أنس، تحقيق الشيخ عبدالوهاب عبداللطيف ، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، سنة ١٣٨٧هـ.
١٨- تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين للشوكاني ، ط. مكتبة المتبنى.
١٩- الأحاديث المختارة للضياء المقدسي : محمد بن عبدالواحد (٥٦٩-٦٤٣هـ).
٢٠- الاعتبار بما فى الناسخ والمنسوخ من الآثار لمحمد بن موسى الحازمى (٥٦٩-٦٤٣هـ) طبع منير الدمشقى سنة ١٣٤٦هـ.
٢١- سنن النسائى : أحمد بن شعيب (٢٥٥-٣٠٣هـ) ط. الحلبى، سنة ١٣٨٣هـ.
٢٢- مجمع الزوائد للهيثمى : على بن أبى بكر (٧٣٥-٨٠٧هـ) ط. دار الكتاب العربى.
٢٣- الأحاديث القدسية للنووى ، ط. مكتبة الاعتصام.
٢٤- جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير للسيوطى: الإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر بن محمد السيوطى المتوفى سنة ٨٤٩هـ ، ٩١١م، ط. مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة.
٢٥- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من حديث سيد الأخيار للشوكانى : محمد ابن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ . ط. الحلبى سنة ١٣٤٧هـ.
٢٦- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى: عبدالرؤوف المناوى (٩٥٢-١٠٣١هـ) ط. المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة.

مراجع اللغة :

١ - القاموس المحيط للفيروزآبادى : محمد بن يعقوب (٧٢٩-٨١٧هـ)، ط. دار الفكر ، بيروت.
٢ - الصحاح للجوهرى : (١-٦) تحقيق أحمد عبدالغفور عطار - القاهرة ١٩٥٦م.
٣ - لسان العرب لابن منظور : محمد بن مكرم (٦٣٠-٧١١هـ) ط. دار صادر، بيروت، سنة ١٩٥٥م.
٤ - الحربى : إبراهيم بن اسحاق (١٩٨-٢٨٥هـ) «غريب الحديث» مخطوط ثم طُبع.

٥ - ابن قتيبة : عبدالله بن مسلم (٢١٣-٢٧٦هـ) «غريب الحديث» مخطوط ثم طُبع.
٦ - ابن الأثير : المبارك بن محمد (٥٤٤-٦٠٦هـ) ، «النهاية فى غريب الحديث والأثر» - المطبعة العثمانية بمصر ١٣١١هـ.
٧ - المعرب للجواليقى تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، ١٩٣٨م.
٨ - فقه اللغة للثعالبى.
٩ - المنجد فى اللغة.

السيرة والتراجم :

١ - الطبقات الكبرى لابن سعد كاتب الواقدى المتوفى سنة ٢٧٦هـ، ط. المطبعة الرحمانية ، ١٣٥٣هـ.
٢ - تاريخ الملوك للطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ.
٣ - قصص الأنبياء للكسائى ، ط. ليدن.
٤ - قصص الأنبياء لابن كثير، القاهرة ، ١٣٥١ - ١٣٥٨هـ.
٥ - قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس للثعلبى ، القاهرة ١٩٥٤م.
٦ - الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى: أبو الفضل أحمد بن على الكتانى المصرى، المتوفى سنة ٥٨٢هـ ، طبع بمطبعة مصطفى محمد بمصر ، سنة ١٣٥٨هـ.
٧ - الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى تحقيق سخاو، ليبرج، ١٩٢٣م.
٨ - آثار البلاد للقزوينى ، ط. دار صادر ، بيروت، ١٩٦٠م.
٩- البداية والنهاية ويليه نهاية البداية لابن كثير، ط. العلمية، بيروت، لبنان.
١٠- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى لمؤلفه أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه سالم القرطبى الأندلسى (٢٤٦-٣٢٧هـ) ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر.
١١- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لسبط الجوزى: شمس الدين أبو المظفر يوسف ابن مزاوغلى (٥٨١-٦٥٤هـ) تحقيق الدكتور إحسان عباس. ط. دار الشروق، (د. ولى) / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ (السفر الأولى).
١٢- الأزمنة والأمكنة للمرزوقى (١-٢) حيدر آباد الركن.

١٣- البدء والتاريخ لابن طاهر المقدسى (١-٥) نشر كلمان هوار. باريس ١٨٩٩-١٩١٩م.
١٤- تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ، بيروت ١٩٦١م.
١٥- تاريخ الإسلام للذهبى ، مخطوط أيا صوفيا، رقم ٣٠١٣.
١٦- سيرة ابن هشام (١-٤ فى مجلدين) القاهرة ١٩٥٥م.
١٧- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد، القاهرة ١٣٥٠-١٣٥١هـ.
١٨- حلية الأولياء لأبى نعيم (١-١٠) ، القاهرة، ١٩٣٨م.
١٩- وفيات الأعيان لابن خلكان (١-٨) تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨-١٩٧٢م.
٢٠- ميزان الاعتدال للذهبى (١-٤) تحقيق على محمد البجاوى، القاهرة ١٩٦٣م.
٢١- الملل والنحل للشهرستانى (١-٢) تخريج محمد فتح الله بدران- القاهرة.
٢٢- قصص الأنبياء للشيخ عبدالوهاب النجار، ط. الحلبى ١٣٨٦هـ ، ١٩٦٦م، القاهرة.
٢٣- كتاب بداية القدماء وهداية الحكماء.
٢٤- غرر السير للثعالبى، تحقيق مجتبى مينوى، طهران ١٩٦٣م.
٢٥- عيون التواريخ للكتبى تحقيق فيصل السامر ونبيلة داود، بغداد ١٩٨٠م.
٢٦- سير أعلام النبلاء للذهبى.

مراجع الفقه :

١ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ المتوفى سنة ١٢٥٨هـ ، وحققه الشيخ محمد حامد الفقى المصرى.

٢ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية : أحمد بن عبدالحليم الحرانى (٦٦١-٧٢٨هـ).
٣ - كتاب فتاوى شرعية وبحوث إسلامية لفضيلة الشيخ حسين مخلوف مفتى الديار المصرية السابق.
٤ - الفتاوى للشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر السابق.

٥ – فقه السُّنة للشيخ سيد سابق مفتى الديار المصرية السابق.
٦ – المدخل إلى تنمية الأعمال لابن الحاج ، ط. دار الحديث القاهرة.
٧ – إغاثة اللهفان عن مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية.
٨ – المنهاج لأبى عبدالله الحليمى.
٩ – حجة اللَّه البالغة للدهلوى : الشيخ أحمد المعروف بشاه ولى اللَّه بن عبدالرحيم، تحقيق ومراجعة الشيخ سيد سابق، ط. دار الكتب الحديثة، القاهرة.
١٠ – مذكرات التوحيد للشيخ حسن عبدالرحيم مكى.
١١ – تنوير القلوب فى معاملة علام الغيوب للكردى : الشيخ محمد أمين الكردى المتوفى نسة ١٣٣٢هـ.

مراجع عامة :

١ – إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ ، ويليه كتاب المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج ما فى الأحياء من الأخبار للعلامة زين الدين أبى الفضل عبدالرحيم ين الحسين العراقى المتوفى فى سنة ٨٠٦هـ ، وفى آخره ثلاثة كتب الأول : تعريف الأحياء بفضائل الأحياء للعلامة عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله العيدروسى باعلوى، الثانى : الإملاء عن إشكالات الأحياء للإمام الغزالى: رد به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الأحياء، الثالث: عوارف المعارف، للعارف بالله تعالى الإمام السهروردى، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٢ – دراسات قرآنية (من أسرار البنوات فى القرآن) للأستاذ حسن إسماعيل منصور، ط. مجمع البحوث الإسلامية، ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م، القاهرة.
٣ – مع الأنبياء فى القرآن الكريم ، عفيف عبدالفتاح طبارة ، دار العلم للملايين، بيروت.
٤ – الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل، دكتور/ محمد وصفى، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.

٥ - كتاب دائرة المعارف للبستانى.
٦ - السجلات القديمة والعهد الجديد للأستاذ جيمس بوشر المتوفى سنة ١٩٥٦م.
٧ - من دلائل الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسُّنة النبوية للدكتور/ موسى الخطيب، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م.
٨ - الدعاء فى القرآن للدكتور / محمود بن الشريف، د. دار المعارف المصرية.
٩ - أقباس من نور الحق (١-٣) لفضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى، ط. مجمع البحوث الإسلامية.
١٠- الإنسان (الروح والعقل والنفس) للدكتور/ نبيه عبدالرحمن عثمان، رابطة العالم الإسلامى، مكة المكرمة.
١١- محمد ﷺ : أريج من سيرته وقبس من شريعته ، لفضيلة الشيخ محمد محمد الدهان، ط. الشعب، ١٣٩٤هـ ، ١٩٧٤م.
١٢- آيات الدعاء فى القرآن الكريم (دعاء الأنبياء والرسل) : د. محمد محمود أحمد، ود. موسى الخطيب، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٩م.
١٣- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم الجوزية، ط. العلمية بيروت.
١٤- طريق الجنة فى ترك البدعة وإحياء السُّنة للأستاذ / سامى نجيب محمد ، ط. دار الصفوة، القاهرة.
١٥- آيات الدعاء فى القرآن الكريم (الإنسان والدعاء) : د. محمد محمود أحمد، د. موسى الخطيب ، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩٧م، ١٤١٧هـ.
١٦- بين عيسى ومحمد للأستاذ محمد عبدالرحيم عنبر.
١٧- تعريف عام بدين الإسلام للأستاذ على الطنطاوى، ط. دار الفكر.
١٨- دين الله واحد للأستاذ محمود أبو ريه، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
١٩- كتاب العرب قبل الإسلام للأستاذ جورجى زيدان، ط. دار الهلال.
٢٠- إنجيل برنابا ترجمة د. خليل سعادة، ط. المنار، ١٣٢٦هـ.

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثانى

دعاء الكافرين الأشرار من أهل النار (من الإنس والجان)

مطابع آمــــــون
٤ ش الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦

رقم الإيـــداع : ٢٠٠٤/ ١٥٩٠٦
الترقيم الدولى :
977 - 294 - 305 - 0